كتاب الناقد

أنسي الحاج

خواتم ٢



RIAD EL-RAYYES BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر

كتب الناقد

أنسي الحاج

خواتم ٢

قلم أُنسي، الذي من نار، هو معماريّنا الأمثل. **سعيد عقل**

إنّي أُحبّه وأحلم دائماً أن أقتني واحداً من خواتمه. **نزار قبّاني**

الحرب قد لا تُبكيني. أُغنية صغيرة قد تُبكيني، أو كلمة لأُنسي الحاج.
محمد الماغوط

جَعَلني على امتداد صفحات خواتم كلّها أقف على أطراف روحي... والآن أعترف بأنني لن أستطيع العودة إلى ما كنتُه قبل قراءة الكتاب. **شوقي بزيع**

ما الذي كان يَحْدث لو أن أنسي الحاج كان مُسْلماً ويكتب باللغة نفسها وبالروحيّة نفسها التي كتب بها؟ حتماً لحدث تغيّر حقيقي في مسيرة الكتابة العربية.
عبد القادر الجنابي

خواتم انتهاك لنظام الكتابة ونظام العالم. **عبده وازن**

نسمة مُعارة إلى الحقيقة الأبديّة. **عقل العويط**

بعض الشعر هو الصمت الذي يكتنف كلامه. **بسّام حجّار**

كأنه يقلب أحشاء روحه كالقفّاز. **زهير غانم**

صدقه العنيف القاطع الأنفاس يمشي في كتابته كما يمشي القَدَر.
منى سابا رحّال

RIAD EL-RAYYES BOOKS
رياض الريّس للكتب والنشر

1855132842

خوارزمی

كتب الناقد

أنسي الحاج

خواتم ٢

RIAD EL-RAYYES
BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر

KHAWATEM (2)

BY

UNSI EL-HAGE

First Published in 1997

LONDON - BEIRUT

British Library Cataloguing in Publication Data available

ISBN 1 85513 284 2

الغلاف: التصميم لمحمد حمادة

الرسم: لوحة للفنان فادي برّاج (لبنان)

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير ١٩٩٧

المحتويات

فِي وَضَحِ الظلام

فكرةُ اللّه تَستحضر صورة العَدَم وفكرةُ العَدَم تستحضر صورة اللّه.

*

النبيّ لا يخاطبكَ بالصراخ، بل يُواصلك بالغريزة.

*

الكائنات في الفردوس لا بدّ أن تكون دائمة التجدّد رغم أبديّتها. كارثةٌ أن يكون المُطْلَق ممّلاً!

أتخيّلُ الفردوسيّ كائناً ساكناً ومسكوناً، نيّراً ومُغطّى، حضوره الخالد، عابر. لا يُرْتَوى منه، مع أنه لن يموت.

...ها أنا أُسقِط عليه مفاهيم نسبيّة.

كلُ ما أدريه هو أنّي، وأنا الهارب من موت الأشياء هنا، لا

أريد أن ألقى موتها هناك. ولكنْ أيضاً لا أريد أن ألقى عكسه، عكسه وحده، محنَّطاً في جموده، فاقداً جاذبّية العابر.

أقلّ ما آمله من الفردوس أن يَجْمع في كائناته، في هوائه وألوانه وأعماقه، مسافتَي الزمن والأبد.

فنحن، ضحايا الزمن، نعرف أيضاً أنّنا من دونه نغدو أَثقل من أن نَحْتمل أنفسنا، فكيف ببعضنا البعض!

*

التاريخ يحكمه الضجر. فهو حافز الاكتشاف وعلّة الخطيئة. كانا دائماً صنوين.

وأما الثابت غير المملول في التاريخ فليس هو ما تظنّ، بل الدائم الادهاش، المستعصي على طاقات الملل فينا، غالبُ شياطيننا بشيطانٍ أَرقى.

هو الأذكى من الموت الذي فينا.

*

ـ أتعتقد أن اللّه يَشترق حياته الأبديّة من «ولادة» الناس حين يقعون في الحب؟

ـ الجواب لن يكون أكثر إقناعاً من السؤال.

*

يحتاج العالم الثالث، كي يصبح فيه الإنسان قيمة مقدّسة، إلى تعزيلات أساسيّة كثيرة، لعلّ في طليعتها تحوّل الدين إلى علاقة فرديّة، ذاتية وداخلية، بين الإنسان واللّه، ومنْعه من أن يظل وحشاً جماهيرياً سرعان ما يتم تجييشه للإبادة أو الانتحار.

من غير ذلك سيظلّ الدين في العالم الثالث مسدّساً للاغتيال ومدفعاً للهدم وسكّيناً للذبح ومطيّة للدسّ الخارجي والتسلّط الداخلي.

*

أَتَدْخل النعمةُ روحاً ملعونة لكي تُفْسدها!؟

*

الجحيم «أَعمق» من الجنّة.

*

أَفهمُ غيرة الشيطان من آدم وتمرّده على الأمر الإلهيّ. لعلّه شَعَر بطعنة الخيانة عندما رأى ذلك التبدّل في الولاء

والوفاء، وكيف تُسقَط رتبة الأصيل لحساب الدخيل...

أليس هذا ما يشعر به العاشق الذي يُخان؟ الصديق الذي يُطعَن؟ وكلُّ مِثال يُغدَر؟

اللّه (في هذا، وفي حكاية قايين وهابيل) أول زارعي الفتنة.

*

أكثر ما يحلو الدين عندما يغدو وشاحاً للحبّ أو دمعةَ شعورٍ فائض (بالذنْب أو بالنعمة) على خدّه.

*

وجود الشرّ برهان على أن اللّه ليس متعصّباً.

*

المسيح لمْ يقل إن الخير قوّة، قال إنه ضعف. لكنّه أظهر كيف يستطيع الضعف أن يغلب القوّة.

المحبّة عنده ليست استقالة، تراجعاً، ليست استسلاماً إلاّ في الظاهر. المحبة عنده استيعاب للآخر (للعدوّ) إلى أن يستنفد ذخيرة عدوانيته.

محبّة تستطيع ذلك هي أقهر من البغض.

*

أحياناً لا أعرف لمن أوجّه استغاثتي، ومع هذا أوجّهها، كأنْ لرفع العَتَب، أو لامتحان عَدَمٍ ما.

عَدَم، وأحياناً يجاوبني.

*

تعجبني في الشرّير الحريّة لا الإيذاء. أشتهي تركيبها على الخير، وأنْ لا تُفْسَد الحريّة إذا التحقتْ بالخير، وأن لا يعاقَب من يُعانقها.

*

... وماذا لو كان في أساس بعض الحروب حنين إلى «العزلة» عَبْر «التعزيل»؟

افتراض مجنون، ومناسبة للتساؤل:

هل الخطأ في حنين العزلة أم في ترجمته عدوانيّاً؟ هل العزلة، في عالم «معزَّل» قليلاً أو كثيراً، شوق غريزي إلى ما يشبه الفردوس، أيام كان السكّان بضعة، والهدوءُ صدى الله؟...

أسئلة مجنونة، لعلّها، وأظن أن فيها مع هذا شيئاً من الصحّة.

منذ عَقَلَ الإنسان الفردوس إلى الآن، وإلى الأبد، زَرَعَه وسوف يظلّ يزرعه بدم أخيه.

*

تأثّر يُغيّر صاحبه وآخر يعطيه ولا يأخذه.

في النوعين من المتأثرين ما يُصفّي وما لا يُصفّي.

حَسَب معدن المتأثر.

متأثر ذو محوّل رديء يُحيل الغناء نشازاً. متأثر مُحوّلهُ مَطْهَر تَطْلَع منه الأشياء كريمة.

لا ننسَ أن اللّه كبير المتأثّرين بصَلاَتنا يضطرب. يأخذ ويعطي على قاعدة لعلّها الوحيدة الواضحة في هذا النظام الغامض، هي الصدْق.

... متأثر مُختلِس، وآخر يتحوّل تحت التأثر كما يتحوّل التراب إلى إنسان.

أنتَ هنا وسط الأمواج والعواصف، وسط النظر والهمس، وسط ما يخترق عظامكَ من أشعّة وضربات.

القوة ليست أن تمرّ بك دون أن تؤثّر فيك، بل أن تؤثر فيك.

وتَرْقى بواسطتها إلى الأنقى، تتجلّى.

الثبات المنشود هو ثبات روحك الشفّافة شفّافة وسط تلاطم التجارب، وثبات تحويل هذه الروح تجاربها، عبر ذلك المطهر، إلى وَهْج «داخلي» لا إلى «أمجاد» مظهريّة.

*

فكرة اللّه بحْر أحمر تصبّ فيه جداول جُروحنا.

*

إفشال ساديّة الآلهة بالاستسلام التام إلى وحشيّتهم. مسابقة الجلاّد بالجلد الذاتي،

ذروة ما توصّل إليه العقل البشري على صعيد التخفيف من شرّ الآلهة لا من حكمها، فحكمُها مُبْرَم.

التراجيديا الإغريقية أظهرت المواجهة بين الإنسان المظلوم والسماء الظالمة. لم تبتكر «الحل بالمزايدة في اختيار العذاب».

في هذا المعنى يبدو لي المسيح ردّاً على التراجيديا الإغريقية أكثر مما هو ردّ على اليهودية.

«المحبّة تُعدي»، خلاصة تبشيره. تُعْدي مَن؟ الآخرين؟ في المقام الثاني. كان يريد أن يُعْدي اللّه أولاً.

*

أليس أنَّ أكثر ما يستهوينا هو ما لا نعرفه؟ الحبّ، الجنس الآخر، السلطة، الحياة...

ولا تأتينا الخيبة إلاّ من حيث أردنا أن نعرف.

لم تمنعنا الآلهة من مدّ اليد إلى شجرة المعرفة. ولم تعاقبنا السماء حين مددنا.

كانت تمنعنا غريزتنا الحسنة وغَلَبَتْها غريزتنا الهدّامة.

وما عوقبناه كان عقاباً ذاتياً: الفراغ الذي حاولنا ردمه بمزيد من الوجود، امتدّ وانتشر وازداد نهشاً لدمنا.

الخطيئة ليست أننا ننجذب إلى المجهول، بالعكس. هذا نداء مبارك.

الخطيئة أننا نكسر سحر التجاذب بإرادة الفهم الواعي. بإرادة برمجة العفوية و«تطبيع» الحلم.

ذلك هو السقوط من كلّ الجنّات.

*

كما في القداسة كذلك في الخطيئة: الفتور كريه.

*

لا، لا يكفي أَن تَطْرَحَ الأسئلة، حتّى لو سمّيتَها الأسئلة المصيريّة. طارح السؤال، ليكونَ كافياً أو مكتفياً قليلاً أو أكثر، لا بدّ أن يكون في حجم «السفانكس»، أو أَرفع شأناً. إذا طَرَحَ الله سؤالاً، أَجْمُدُ. إذا طرحتُ أَنا سؤالاً على الله، يظلّ سؤالاً، مهما اعتصر فؤاد الله أو فؤادك. يجب أَيضاً أَن أُجاوب. أَن أُلاقي الأجوبة. أَن أَسمع الأَجوبة، أَجوبة تحفر في الجدار.

كثيرون يقولون عادةً: حَسْبُ هذا الرجل أَنّه طَرَح الأسئلة التي حرّكتْ ضمير زمانه.

حَسْبُهُ، لا. جميل منه ذلك أو جريء، ربّما. لكنَّ طرح السؤال وحده لا يكفي.

الجواب، ولو مجنوناً ومجنّناً، أَفْضَلُ من البقاء في وَضْع الضحيّة العاجزة الواقفة عند حدود سؤال لا يملك من القوّة ما يستولد الجواب.

*

أن يكون السؤال في حجم المسألة تَنْطَرِحُ على كلّ غامضٍ في الكون.

أَنْ يُقْلِقَ اللّه حتى يَحمله على **القول**. وإن لم يملك الله الجواب، يقوم يبحثُ معنا عنه...

*

اليوم، في الخامسة فجراً، دخلتُ إلى غرفة مطلّة نافذتها على دير الراهبات، أمام البيت. نظرتُ من النافذة إلى القطعة المرئيّة من السماء فوق صليب الكنيسة الصغير، واقشعرّ بدني للمنظر:

كان نور هذا الصباح الشتائيّ بدأ يلوح ضعيفاً، ولكن من وراء الغيوم الكثيفة الحالكة. والمنظر العجيب المرعب الذي رأيته، في تلك الغيوم، هو وجهٌ كبير مع كل قسماته وأجزائه، من عينين وأنف وجبين وشعر وخدّين وذقن ولحية... وجه ضخم جاحظ العينين، قاسي النظرة إلى حد يبعث الفزع. وجه هو نفسه الذي اعتدنا رؤيته في بعض الرسوم، عبر كل العصور، للشيطان. ليس للشيطان المحتال المراوغ الموقع في التجربة، بل للشيطان الآخر، البشع، المجرم، العديم الشفقة، الغول، المفعم بكل ما في الخليقة المعروفة والمجهولة من بغض وشرّ.

استمر هذا المشهد منطبعاً في السماء دقائق. كان نور الفجر يُغلْغل في ثنايا الوجه المخيف، غير قادر على زحزحة الكابوس.

لم أقوَ على التحديق طويلاً، فغادرتُ الغرفة وحاولت معاودة المطالعة.

ذكّرني هذا الهرب بحادثة أُخرى حصلتْ معي مرّة في القاهرة، حين اصطحبني أصدقاء، عند منتصف ليل اليوم الذي وصلت فيه إلى مصر، لمشاهدة تمثال أبي الهول. كان القمر بدراً والدنيا صحو الشتاء. وما إن وصلنا إلى طلسم الرمل ووقع نظري على وجهه حتى تملّكني رعب كاسح وأخفيتُ عينيَّ بيديَّ وطلبتُ المغادرة فوراً. لقد أحسست بيني وبين أبي الهول سلْكاً من الحياة، لعلني أَحتلُّ فيه مركز المذْنب، وأما هو فالمطمئن الجبّار الرابض للحساب. أَحسستُ أن جموده الحجريّ خِداع قد ينطلي على الآخرين ولكنه لن يرحمني أنا. فهو حيّ بكل دهوره، حقيقيّ بكل أساطيره، ويجب أن لا أَمْثُل أمامَه، وإلاّ فلن أنجو.

اليوم فجراً عَرَاني خوف من النوع نفسه أمام شيطان الغيم، ولكنْ أقل حدّة. ربما لأن أبا الهول باقٍ مكانه لا يتزحزح، بينما الغيم غَيم.

وفجأة قلتُ ساخراً من نفسي: «أقوم وأرى ما حلّ بالرؤيا».

فلما نظرت من النافذة إلى تلك البقعة من السماء رأيت وجه الشيطان يُنهي آخر تحوّلاته لا ليضمحلّ كل شيء وتعود الغيوم إلى أشكالها العادية، بل ليتشكّل وجه جديد على أنقاض الأول، وجهٌ صَدِّقْ أو لا تُصدّق، إضحكْ أو لا تضحك، وجه هو ذاته، بكل بلاغة آلامه، وجه يسوع المسيح على الصليب كما اعتدنا رؤيته في أعمال فنّاني عصر النهضة، ولكنْ هنا، بالغيوم المدهشة، أقرب إلى الاستعداد للنطق.

لم تستمر الصورة قَدْر ما استمرّت صورة الشيطان. بل زهاء دقيقتين. ثم عاد كلّ شيء إلى نظامه.

الغيوم ترسم دائماً أشكالاً. كلّنا يستطيع تأملها وتقدير بدائعها. مجرّد تراكيب يتلهّى بتأليفها البُخار ثم تنسفها الريح في ثانية. صُدَفٌ، محْضُ صُدَف.

لكني لا أؤمن بالصُدَف الغبيّة. الصدفة مجموعة اتفاقات. نتيجة إرادات، أو إرادة. وكلّ ما في الكون «يقول». وكلّ ما يحصل «**يعني**».

لا أَعرف ما معنى تَوالي الوجهين عند الفجر. الصراع الدائم؟ إشارة خاصة؟ تذكير؟

بلى، في الحقيقة، لو لم أكن لا أزال أَهرب، لعرفت.

*

شرّير بلا خطيئة شرّير أشدّ؛ خاطىء بلا شرّ ملاكٌ آخر...

*

الغيبُ لاعبٌ يَكْره علماءه.

*

يقول: اللّه لا نهاية له.

وماذا لو كان الله هو المحدود؟ المحدود ذاتيّاً، على الأقلّ؟ المحدود بشسوع مساحته؟ بعزلته؟ بخيبته؟ بجهلنا له؟ لا أدري بعد.

أليس أنّ الجنون هو البلاحدود؟ والبلاهة كذلك؟

نتمنّى اللاحدود حيث الحدود، ونُغمض عيوننا عن لا محدوديّة ما نخجل به!

*

عندما نَفْصل الجسم الأصغر عن الجسم الأكبر لا نعود نجد في الأصغر غير انعكاس شرّنا.

هذا ما حصل للذرّة حين اعتبرنا أنها مَحْضُ مادةٍ لا علاقة لها بالجَرَم الأكبر.

لا يُفصَل شيء عن شيء في الكون إلا بدمار مفتوح على دمار.

*

تَفْهَم غَضَبَكَ حرّية. غضبُكَ فورة أعصاب، ثمرة معطيات وظروف لم يكن لك فيها تأثير. إنتصاركَ على غضبك كان يمكن أن يكون حرّية.

*

ليس في ما نفعل تحت ضغط أجسادنا وبيئاتنا، حرّية. تبدو هذه كأنْ لا يد لنا فيها أكثر مما لسائر الحيوانات في ما تفعل.

ولعل هناك حريتين لا ثالث لهما:

حرّية أن أفديكَ بحبّي حتى مَوتي، وحرّية أن أُلغيكَ (أُبغضك، أخدعك، أستعملك، أستعبدك) حتى موتكَ.

حرّية المسيح وحرّية الشيطان.

❊

وفيما أنا أَكتبها أتساءل: إلى أيّ حدّ حرّيتهما حرّة؟ أَليست هنا أيضاً وليدة سياق تاريخيّ حضاريّ، بالإضافة إلى المؤهلات والدوافع الذاتيّة؟

وهل نحن إلاّ ممثلون لِما يكوّننا مما هو خارج عن إرادتنا؟

وأمّا إرادتنا نحن، وقد كان من المفترض أن تكون هي موجِّهة حرّيتنا، أفليست، كيفما فهمناها، إبنة تركيبنا الجسماني وتربيتنا ومعطيات بيئتنا التي لا شأن لنا فيها؟

هذا لا يعني أن لا وجود للحرّية. هناك حرّية، لعلّها، بالأكثر، **ما يستطيعه سواي أكثر مني**. ما يتجرأ عليه أكثر مني. ما يقوله أكثر مني. إنها حرّية بالنسبة إليَّ، لأني دونها. ولكن لو قارنّاها بصاحبها، ألا نجد أنها ابنة معطياته التي لا فَضْل له كثيراً فيها؟

وهكذا نعود إلى نقطة البداية: لا وجود للحرّية «في ذاتها» إلاّ في حلم الإنسان. وأسوأ خداع حول هذا الموضوع هو الخداع اللفظي السياسي الذي دفّع الشعوب والأفراد أنهاراً من الدم لأسباب وأهداف غالباً حقيرة مثل التنافس على

السلطة وحروب الطغيان والثورات المدبَّرة.

*

وغْيُ وَهْم الحرّية هو الحرّية. هو بدء الحلم بها حقيقيّة، أي بدفْع ثمنها الأغلى: حياتك، أو ضميرك، أي حياة الآخرين.

*

وَغْيُ وَهْم الحرّية هو بداية «تدخّلي» في موضوعها بعدما كان خارجاً عن إرادتي. هذا التدخّل، حتّى لو لم يغيّر شيئاً (وقد يُغيّر)، مهمّ لأنه ينتشل ما أَظنّه حرّيتي من فرادتها الغبيّة، وما أظنّه لاحرّيتي من ابتذالها المميت.

*

أَملٌ مُشتتر ومقنَّع بالحزن أو الحياد، حتى لا تراه الآلهة فترشقه سهام عيونها الغيورة من كل أمل. أمل مهرَّب من عيون أصحابه أنفسهم، أيضاً.

*

وأنا أقرأ تفسير بعض اللاهوتيّين الأوروبيّين لكلمات في عَهْدَي الكتاب المقدس:

لفظية «الأنبياء» الشرقيّين لا تستدعي كلّ هذه الجدّية في التفسير كما يمارسه العقل الغربي،

والشاعريّة الشرقيّة تفيض عن فهم المنطق الغربيّ...

*

نتخيّل الحُرّ دائماً إما ثائراً وإما مستهتراً وفي كلّ الأحوال إنساناً فاجعاً مدموغاً بلعنة التمرّد على قَدَر البشر.

وهي صورة قلّما ابتعدتْ، في العمق، عن صورة آدم في الخطيئة، أو عن صورة إبليس الرافض والدافع هو أيضاً ضريبة عصيانه.

ولكنْ أيّ حُرّ هو هذا الحُر؟ وكيف يكون حرّاً وهو الغارق في اختياراته الجارفة... والجارفة معها كل «تجرّد»؟

عوض أن نقول «حرّ» أحرى أن نقول «منحاز» أو «متحمّس» أو «هائم» أو «ملتزم».

الحرّ خالص من التصنيف. خارج الصفوف. غير «عالق». وما إن ينحاز حتى يحمل دمغة اختياره.

أَمَا من أحرار، إذن؟

بلى، كثيرون. والخوف أن لا يكونوا أبداً في بهاء لفظة «أحرار» وما توحيه في خيالنا الرومنتيكي لفظة «الحرّية».

فحرّية الحلم هي أن تكون بلا رباط، وهي قد تكون أفتر وأبهت من أن يموت في سبيلها أحد. والحرّية التي يموتون في سبيلها هي، في الواقع، حرّية ارتباط بشيء مناهض لارتباطٍ آخر...

*

لا أكفّ عن تنفيس صورة الحرّية، أنا الذي يموت بدونها.

ردّ فعل على ماذا؟ على «زَجَليّة» الخطاب الحُريّ؟ بل أيضاً على خداعٍ ما (أو انخداع) في مفهوم الحرّية، هو حجر العثرة الذي يوقع في عَدَمها...

*

الآلهة تغضب فتنقم وتنتقم: مِنْ طرد آدم وحوّاء وإنزال الموت بهما، إلى الطوفان، وسدوم وعمورة، وبرج بابل، والضربات واللعنات والإبادات الجماعّية... وما يقال عن إله إسرائيل يقال عن آلهة الشعوب القديمة كافة، وإن تكن آلهتها تلك أكثر رحمة، أحياناً أو، إنصافاً، أقلّ مبالاة بشؤون «شعوبها»، ولذلك كانت، ربما، أكثر تسامحاً. فحيث تعظم نرجسيّة الإله يقلّ احتفاله بعبيده فتخفّ وطأته عنهم.

يبدو الانتقام عند الآلهة، بمن فيها يَهْوَه، صفة ملازمة، يبررها أنبياء العهود القديمة وشعراؤها حتى وهُم يئنّون من فظاعاتها. ويبررها قارىء العصور الحديثة بقوله إن اللّه لم يجد حلّاً آخر لإصلاح الإنسان المفطور على الشر والخطيئة.

يسوع المسيح كسر القاعدة وانتصر على هذه الصفة الإلهيّة وظلّ يطاردها في أذهان معاصريه حتى الموت، موته، مستسلماً بلا مقاومة ظاهرة لكلّ أنواع البغضاء.

ونقَل صفة الانتقام والحقد إلى البشر «الضعفاء» باستقوائهم، غاسلاً منها صورة اللّه.

المسيح هو هرطقة على اللّه الآخر، على الآلهة الأخرى، التي ملأت التاريخ بصخب حروبها وصراخ جرائمها ودماء ضحاياها.

ولم أستطع بعد أن أفهم وأقتنع بقوله: «ما جئت لأنقض بل لأكمل»... فهو، في هذا على الأقل، سجّل افتراقاً حاسماً عما قبله وعما بعده، إذ بقي مَثَلُه الخارق، المحتقر سلطة القوة الحيوانية والخارجية إلى أقصى درجات الاحتقار، والرافض الانسياق إلى دوّامة البغضاء وردّ الفعل على

أساس أن البغضاء هي الضعف وأن الرفق والمحبة والشفقة والغفران هي السلطة الحقيقيّة، سلطة الانعتاق من عبوديّة الموت ـ بقي مَثَلُه مُفْرَداً وحيداً بين الآلهة.

هرطقة على الآلهة...

*

يمتحنني اللّه بواسطة هامش الحرّية الصغير المتروك لي.
يمتحنني لأنه يريد أن يعرف.

هو أيضاً يريد أن يعرف.

*

هل صحيح خَلَقَني الله من دون رغبتي أن أُخْلَق؟ من دون مساهمتي؟ ومَن يؤكد ذلك؟

ولمَ لا تكون رغبة الخليقة ذاتها أن تُخلَق قد وُلِدت في اللّه وظلّت تضجّ في باله حتى استجاب؟

يُفسَّر عندئذٍ الشرط الذي يُفرض على الإنسان كي يجد الخلاص: شرط أن يشارك الله في تحقيق هذا الخلاص.

كما يقول أوغسطينوس: «الذي خَلقَنا بدونِنا لن يخلّصنا بدونِنا».

ولكن مع تعديل فكرة أوغسطينوس وتشويه عبارتها فتصبح: الذي خَلقَنا استجابة لطلبنا يخلّصنا استجابة لطلبنا.

*

«الله لم يَخْلُق إلاّ وهو مختبىء» (سيمون فايل).

كفعل الحبّ. كالصلاة، وراء ستارة القلب. كالبغض الضخم. ككلّ زلزال.

الخباء هو تحصيل ما تبقّى من الذات خارجاً، وتجميعه فيها، تركيزها التركيز المُطْلق، حتى ابيضاض الروح، استعداداً للخروج إلى الآخر.

الويل لمن لا يستطيع أن يختبىء! فكيف له أَن يظهر؟

*

لم يَخلق شيئاً إلاّ عندما كان يعيش في يقينٍ أنه عاجز عن الخلق.

نسيانُ الطموح إلى تقليد اللّه قد يحمل للإنسان أملاً في خَلْق. الخَلْق لا يُبْتَغى. يحصل من جرح براءة، مثل عمىً يُمزِّق، أو بصيرةٍ تُغْمَض عن العالم المُعمي.

هل يكون اللّه نفسه قد خلق الإنسان في الظروف ذاتها من البراءة الجريح؟

... أو من البراءة التي جَرَحها المخلوق في ما بعد، ولم يستطع أن يفهم عذابها.

*

كنتُ أظنّ أيّوب، بصبره، أشْعَرَ اللّه بالذنب. ولكنّ الصبر مادة إلهيّة. ولعل اللّه خشي إن تمادى أيوب في صبره أن يصبح إلهاً. بينما لحاجة الصلاة، حرارة الطلب تُبقي الإنسان في حدود بشريّته.

*

الخَلْق ليس قيمة أخلاقية. لا يُعفي من «الفحص». لأن الخلّاق قد يكون أيضاً خلّاق أكاذيب، أو جرائم، أو تحف شرّيرة.

كما أن الفضائل، كالصدق والصفاء والمحبّة والإنسانية، ليست بكافية لجعل خَلْق ما ـ لنقلْ ملحمةً أو مجموعة قصائد أو قصة ـ تحفةً إبداعيّة.

الخَلْق يحتاج دوماً إلى ما هو أكثر منه ليجتاز عتبة ذاته

نحو المُطْلَق. لا بل: نحو ما لم يكن في حسبان ذاته.

كأني بمبدع الكون حصل له هذا الأمر: تجاوَزَهُ فعْلُه.

*

كم تظهر الأديان مجامِلة حين يدّعي أصحابها أن الله للجميع... فليس في شرائع كلّ منها وأَدعيته إلاّ الصلاة من أجل نصرة «محازبيه» دون سواهم.

لا، في نظر الأديان، اللّه ليس واحداً للجميع بل هو لكل منها دون الأديان الأخرى. اللّه هو للجميع فعلاً خارج كل الأديان.

*

ما يَنْقص الملاك هو التوبة. قد نُحبّه، لكنه لا يُبكينا.

كذلك القدّيسون الأفاضل، الذين بلا شائبة.

لكنّ التائب (أو النادم) هو الاثنان: الأرض والسماء. لأن جذوره في الرذيلة. وفضْل فضيلته أكبر.

الملاك الذي يخصّ خصّاً هو مَنْ يُحاذي السقوط. أو ذاك

المكبوت. أو الذي سقط فعلاً وراح يُصارع ما تبقّى فيه من نعمة أو ما ابتدأ ينهشه من لعنة.

*

لِمَ الموازاة بين اللاعنف على طريقة المسيح أو غاندي و«العنف» أو نشوة القوّة على طريقة نيتشه؟

لأنهما يلتقيان في رفض التسويات الفاترة والحلول الجبانة.

لأن الأول يحتقر القوّة والآخر يحتقر الضعف. القوّة المستحقة الاحتقار (قوة العضل والعدد والشر) والضعف المستحق الاحتقار (ضعف البشاعة الكيانيّة، ضعف غياب أيّ سحر، أي ضوء، أي حقيقة، أي حياة...).

وكلاهما على حقّ، والواحد منهما يكمل الآخر.

*

... ولـمَ لا يكون الخَلق، أيضاً، «تسرُّب» نورٍ ما (لنقل نور فيضٍ، أو جنون، أو نور فوضى اخترقت النظام، أو نور خطأ، أو سهوٍ، أو سقطةٍ أو غفوة...)،

تسرُّب نورٍ كهذا إلى صلادة المادة، جاعلاً منها حياة لم تنِ مدهوشة بذاتها؟

أليس في الخلق الأدبي والفني كذلك ما يشابه هذا «الانحراف» عن نظام الغياب؟ ما يشابه هذا التوسّع «الروحي»، هذا الامتداد من ذاكرة إلى ذاكرة؟

يكون الله حينئذٍ، قادحُ أول شرارة من حجارة الكون الصمّاء، قد فعل بيدين سئمتا هدوءاً لا تزعزعه حياة، حياة يجعلها الموت، صنيعتُها وحارسُها ومُلهمُها، أجمل مما هي.

*

بعد موت الجسد تخرج منه الروح لتحوّم حوله على أمل أن يعود قفصه ويأسرها فترتاح...

*

في بعض المذاهب البوذيّة، يَعْدل الحكيم مؤقتاً عن ملاحقة خلاصه متخلّياً عن بلوغ النيرفانا وقد أصبحتْ قريبة منه. لماذا؟ للإسراع إلى نجدة نفسٍ سواه يرى أنها تتعذّب أكثر منه وتحتاج إلى عونه.

القاعدة هنا تصبح الحنوّ والرحمة، لا تطهير الذات مجرّدة

عن العالم. فجأةً يبدو خلاص الذات المعزولة عملاً أنانياً قياساً بهذه الطِيبَة اللامتناهية.

قداسةٌ مرّتين.

*

يومَ نَنْتهك ولا نعود ندفع الثمن، تكون الآلهة قد أصبحت أكرم منّا.

*

سبحان من يُحرِّر وهو لا يتحرّر!

*

الثعبان دينيٌّ أكثر ممن يُبشّرون ضدّه.

*

ساعدِ اللّه ليحتمل معاناته أَمام عذاب الخليقة!

*

يُنكر وجود اللّه لا كفراً بل ليحميه من مشهد الخليقة في فظائعها وعذاباتها.

بعض الإلحاد غيرةٌ على اللّه.

*

قولُكَ إن لم يكن اللّه حقيقة فكلُّ شيء مباح، أما أحرى أن يكون: كل شيء مباح إذا اللّه حقيقة؟

لأن وجوده ضمان لغفران الخطايا.

بينما غيابه هو الأجدر بضبط الخلائق. فحين لا يعود مَن يَغفر، ينْطل إغراء الارتكاب وتضمحلّ تلك الطمأنينة اللّاشعوريّة التي تَسْند التجاوز.

*

يُضحكُ «المؤمن الرسميّ» عندما يظنّ أنّكَ بالمعصية تُهين الخالق. المعصية مخالفة تُثبّت سلطة الخالق.

هي تَمرّد في كنف النظام، حُلمُ نَفْسٍ معذّبة، ثم تعود الستائر لتنغلق.

المعصية قليلة، لا نَسب بينها وبين الشهوات الخنزيريّة الواسعة الانتشار بين البشر. المعصية طهارة تعي ذاتها حتى الإغماء، وتُلطّخ ذاتها وتُمرّغها حتى الإغماء. العاصي قد

يكون قدّيساً أكبر من القدّيس لأنه يناقض قداسته، يمزّق حجابها ويتمزّق.

فالعاصي يتمرّد على تناقض الثنائيّات، وتمرّده ليس ابتعاداً عن هذه الثنائيّات، بل هو صراع من أجل الوَصْل بينها حيث يستجمّ الرأس إلاّ من الحبّ.

*

جزء فيكَ ليس وَرِعاً. لا تَقْمَعْهُ. جسدُكَ مَناطق. بعضها لا تصل إليه الشمس بل القمر، أو ربّما الظلال. أو لعلّه ملاكٌ «ساقط»، دعْه وشأنه.

*

الصوَر التي رسمها البشر للّه عبر الأزمنة هي المشكلة. هل من الممكن أن يُحَبّ كإلهٍ خالق، ذلك الإله الجبّار الدمويّ الذي يأمر بذبح الأطفال والنساء بعد نهب الأرض؟

اللّه الذي في قلبي، رغم خطاياي، نظيف أكثر من صُوَر اللّه المالئة تاريخ البشرية دماً وتمزيقاً، بحجّة أنه أب يربّي أبناءه، أو زعيم جماعة يؤثرها على الآخرين فيبيح لها أعناقهم.

اللّه الذي في قلبي معذّب بتناقضاتي، محدود بمادّيتي، مستضعَف بضعفي ومستنزَف بما يعصف بي مما يحجبه عن رؤيتي.

ومع ذلك، هذا الإله الخائف دوماً أن يكون على خطأ، لم يَقتل ولن يَقْتل، لم ينغلق ولن ينغلق، لم يحقد ولن يحقد، ولم يُعطني ذاكرة إلّا لانعصار الحنان ولا خيالاً إلّا لمزيدٍ من الحبّ.

*

بين رَجْفة المتصوّف ورجفة المتعصّب شَعرةٌ في حجم اللّه.

*

الانسحاق أمام اللّه في المعبد والتكبّر على أخيك في الشارع؟ تملُّق الجبان.

*

مَن الذي أُحبّ؟

إله يجرّدك من أسلحة قَتْلكَ في الآخر وفيك، لا من أسلحة قَتْله هو وحده.

*

الانتصار الوحيد الذي أطمح إلى تحقيقه عليكَ، هو أَن تَفْهمني.

وأَن تَفْهمني لتحبّني، لا لأنتصر عليك. وأن تُحبّني لتفرح بي كما أحبّك وأفرح بك. أيُّ إلهٍ عندئذٍ يبقى بعيداً عن أمثالنا، أو يباعد بيننا؟

*

صلاةٌ في عزّ الشَبَق: هذان هما الطُهران.

*

ما تظنّه صباحَكَ هو ليلكَ وما تظنّه ظلامكَ هو صرخة نور اللّه فيك.

*

قدّيس عامر باللّه أكثر من اللّه المتداول.

شاعر يحبّب باللّه حين تُقرأ آلام هذا الشاعر، ويَشيع جماله ولَعْنَتُه، وحرائقه، أكثر مما يحبّب باللّه ملايين الأتقياء والأفاضل، لأن ذاك الشاعر متجدّد (ومجدِّد) بحرائقه. والاحتراق، ولو بلَهَب جهنّم، يُطلّ على النعمة.

*

عَظَمةُ الخَلْق ليست، أمام سُحْق العدم، بأكثر من طفل. ولهذا السبب ستظلّ الحياة، مهما شاخت، تبدو صبيّة.

*

أُحب حتى التعبُّد بعض القدّيسات والقدّيسين. وما ينهى عنه البروتستنتيون إنما يحصل لي: تعبُّدي للقديسة ريتا، مثلاً، قد يُنسيني الصلاة للمسيح، ولو أنه موجود في خلفيّات الصورة.

لماذا هذه «الصَنَميّة الجديدة»؟

لأني أُؤخذ في حبّي لهؤلاء القدّيسات والقدّيسين لا بدرجة تديّنهم إنما بمدى إفراطهم في الحبّ.

الذين أَحبّوا حتى الموت، وماتوا فداءً، وتخطّوا أنفسهم في الشفقة والإغاثة فباتوا أنواراً خارقة خالدة، هُم شُفَعائي إلى أيّ دين انتموا أو لم ينتموا.

ولا يُحتمل الدين إلاّ واسطةَ معجزة.

المعجزة التي هي ثمرة الدرجة القصوى من **خوف المُحبّ على محبوبه.**

كان دائماً
هو هذا

أمٌّ، ومعشوقة كعذراء.

عذراء، وعاشقة كزوجةٍ محبوسة.

*

أَقواهنَّ: المستعجلةُ الخفيفة، وتلك الهادئة القَدَريّة. الأولى سفّاحة بطيشها والثانية فتّاكة بعمقها.

والطيش عميق، والعمق فراغ.

*

حبّي محموم لموازاة صقيعي حيال كلّ شيء آخر.

*

غارساً جذوري في مسافات الذاكرة، عائداً إلى الهواء على

ظلال الخيال، أغدو محبّاً للآخر حين أختلي بنفسي أكثر مما أكون وأنا أمامه.

ما عدا حالة واحدة هي الرغبة: هنا المسافة لا تحتاج إلى الغياب. فالدُوار يجعل الحاضر حلماً والحلمَ حاضراً، وهَذَيانُ الحبّ يُجرّد المجسَّد ويُجسّد المجرَّد.

*

أَستطيع أن أَمتحن جمالكِ أكثر عندما تُغرين سواي. بُعْدُكِ ضميرُ المتعة.

*

مِن معاني الوهم، في القاموس، الطريق الواسعة.

*

إنتزاعُ المرأة من الوجود الجمالي ـ المتْعويّ وتحويلها كائناً سياسيّاً احتجاجيّاً هو انتقام منها دبّره الفرع اللواطيّ للعقل الذَكَريّ.

*

نُغنّي الحبّ لأنه نداء عذابنا لا لأنه سعادتنا. نُغنّيه على أمل

أن يقع سوانا فيه فننتقم. كيف يكون الحبُّ سعادتنا، فرحتنا، ولا بد أن يكون أحد العاشقين فريسةً للآخر؟ لم أعرف محرّضاً على الموت طلباً للراحة أكثر من الحبّ. حتى آلام المرض المبرّحة لا إخالها (وليسامحني المرضى المتألمون على هذا الادعاء الذي أعرف أنه غير صحيح) أقوى من هواجس الغيرة وخوف أن يكون العاشق ملعوباً عليه، أو هو أوشك أن يفقد بعض حظوته. لا أعرف أشدّ يأساً من الشعور بفقدان موجات الاتصال المتكافئة بين عاشقَين. ولا من رعب الفراق.

لا أعرف محرّضاً على التخريب (تخريب المعشوق وتخريب الذات) أقوى من الإغراء أو الجمال، باعثَي الحب. لا أعرف مصدراً للسقوط، للذلّ، أقوى من عذاب الحب. لم أنتحر يوماً كما انتحرتُ كلّما أحببت.

أُغنّي الحبّ لا لأنه جنّتي بل لأنه جحيمي. لا لأنه ثوابي بل لأنه عقابي. ومع هذا أُغنّيه وكان يجب أن أُكافحه.

أُغنّيه، لأنّي حيث عميقاً أسقط عبْره، أجد ملاكي تحت وجهي. وبين دموعي قد ألمح صورة لي ربما تمدّني، في يوم ما، بعزاء: صورة إنسان لا يزال قادراً على الألم والموت

بفضل حبّه للآخر، وليس فقط من تبادل الشرّ مع الآخرين.

*

ما أكرهه في الجمال ليس أنه لا يصغي إلى نداءات الأخلاق، بل أنه لا يصغي إلى استغاثات الشعور.

ما أكرهه وما أُحبّه، وَفْق ما أكون أنا المتضرر أو أنا المستفيد.

*

السبب الأكبر لمرارتي من العالم هو أنه منعني أن لا أفعل في حياتي شيئاً غير الحبّ.

*

أجمل ما يثيره فينا الجمال هي الدموع. إنّها ماء روحه.

*

اللحظة التي نبكي فيها أمام الروعة اعتراف بأن كلّ حياتنا السابقة كانت صحراء.

*

يبدأ الجمال بأن يُبكينا تأثّراً به وينتهي بأن يُبكينا حسرةً على راحة بالنا قبل أن نعرفه.

*

«كلّما أحببتُهم وقعوا من القطار»؟

كلّما أحببتُهم وقعتُ من القطار.

*

ـ هل تظنّ أنّكَ أحببت يوماً من يجب أن تحبّ؟

ـ طبعاً من «يجب» أن أحب: وجوب الألم على المحكوم بالعيش ضد نَفْسه.

*

أُحبّكِ لأسباب نسيتُها، لأسباب ضائعة في عبّ السفينة الغريق. أحبّك لأنكِ طالعة من عهدِ كنتُ ابنكِ، قبل أن أغدو أباكِ، ثم ذلك الغريب الذي تملكين.

*

تبدأ بالمجون وتنتهي بالعبادة.

مخلوق برأس شيطان وقلب مسيح.

*

هل نعشق إلاّ مَن نريد أن ننتقم منهم أو ينتقموا منّا؟

*

لا يُقدّر جسدَ الصَبيّة إلّا العاشق الكهل: صورة أخرى عن حتميّة الخلل في جهاز العلاقات البشرّية.

*

هناك من يموت على أمل أن يحظى بعد الموت بمن يشتاق إليه.

*

لا الإباحّية ولا الحرّية الجنسيّة لِذاتهما.

كلتاهما، إذا أصبحتا غاية في ذاتها، إلغاء لما نَنْشده منهما.

البحث هو، ودائماً كان تحت ألف اسم، عن الصدْق. وإذا حمل في طيّاته التهتّك فهو مرغوب لأنه صادق لا لأنه يرفع راية الحرّية.

الصدْق أهمّ الفضائل. ربما لأنه، عندما أجده في الآخر، أَطمئن إلى أني لم أُخدَع.

الصدق يخاطب فيَّ ما يظنّه الصادق أرفع ما فيّ: القدرة على مجاراته حيث يتميّز.

حيال الصدق، قيمة كالحرّية نفسها تغدو مَظهريّة.

*

أقوى الشهوات تلك التي لا وجه محدوداً لهدفها. إنها تتخلّص من القفص الصغير لتنطلق على سجيّتها في الهجس المُطْلَق. وجهٌ واحد قد يُفضي بابُه إلى هذا، إن هو لبّى الخيال وظلّ يتركه على جوعه.

*

امرأة واحدة ولكنْ تصلح لأن تكون حجاباً لجميع الوجوه.

وجه واحد ولكنّه كالمدى، معه تنطلق إلى ما يكملكما في الجميع - **«جميع» خيالك.**

بعض قواعد الايروتيسم: كلّ الأجساد في وجه واحد - ولكنْ كلّ الأجساد.

*

عن الاتّحاد أم عن الاجتياح؟

الاتحاد مستحيل. فما إن أَبلُغَه حتى أفقده.

أو أحتقره وأرفضه.

أو يحتقرني ويرفضني.

كلّما اتّحدتُ انفصلتُ.

*

كـلُّ جمال يستبطن بعض انحرافاتنا، وإلّا بقي رخاماً بارداً.

*

لا نختبِىء إلا المعلوم. **السرّي يمشي سافراً ولا يراه أحد.**

*

ما من مجّانيّة في العلاقة إلا تلك التي نختلسها في ظلامٍ ما ممّن ليس بيننا وبينهم معرفة.

*

«القدّيس» الذي يَهِبُ نفسه مجاناً لامرأة، رغم اضطهادها

له و«خيانتها»، لا ينوهب مجاناً، بل لأنه يصنع خيره من شرّها.

*

عندما يحصل الحبّ تهجم العاصفة عمياء. يتجسّد الجنون على شكل قلب.

كلّ حبّ إغتصاب.

*

ما يحّبه الرجل في المرأة ليس فقط ضعف الكائن الاجتماعي المستضعَف والمستغَلّ، كما يعتقد بعض النَسَوّيات. ثمّة ضعف آخر فيها يستهوي، هو «قلق الأم» على الرجل، ولو عشيقها، ولو أكبر منها سنّاً. تلك الرقّة المسؤولة التي هي في باطنها حكمة وقوّة عندما تطوّقان الرجل لا يصمد له من قوّته المزعومة سوى العضلات.

*

لعل خطأ «الثورة الجنسيّة»، التي بدأتْ غرباً منتصف الستّينات، أنها، في رد فعل على عصور من الكبت، أحلّت إرهاب الحرّية الجنسية محل سلطة العاطفة والحب. مما كانت نتيجته «عودة» الحبّ والعاطفة مظفّرين، خصوصاً بعد بروز شبح «الإيدز».

لكنها «عودة» في الظاهر فقط. الحبّ والعاطفة لم يذهبا إلى مكان. كما أن الثورة الجنسية لم تكن قد بدأت فعلاً، وما حصل يومها هو رد فعل عشوائي أكثره انتهازية لا حرّية، وصراخ لفظي، والأسوأ: جَماعيّ، وأكاد أقول: غوغائي.

الثورة الجنسيّة مسألة فرديّة. كذلك الحبّ، طبعاً. بصرف النظر عن الناحية الاقتصادية ـ الاجتماعية، التي لا شك في أهميتها. إلاّ أن التصرف الحبيّ ـ الجنسي عملية محض شخصية، غارقة في المجهول مهما عُلِمَتْ وعُلِمَ في شأنها، والتغيّر في هذا الميدان يبقى مسألة فردية مهما تأثر بالبيئة وتطوراتها.

لقد تعامل الغرب مع «الثورة الجنسية» تعاملاً قريباً من تعامله مع بِدَع الأزياء. كانت صرعة ولم تكن حَفْراً في الأعماق. وتأسيس الحرية الجنسية على أنقاض العاطفة كان خطأً بنسبة ما كان خطأً من قَبل عزل الحبّ عن الجنس.

يجب إعادة وَصْل التيار بين هذين الوجهين للرغبة... إلاّ إذا اختار بطل اللعبة وجهاً دون الآخر، لسببٍ يزيده حرّية، وقد يزيده شعوراً بالنصف الذي اختار تغييبه.

*

حتى الربط بين الوجهين يبدو لي، الآن، عسفاً زائغاً. الواقع ليس تماماً كذلك. كان وسيبقى هناك محل واسع على هذا الصعيد لشيء آخر مختلف، غير قابل للتأطير، ولا للوضع في مَنْبَذ.

لا هو الجنس وحده، ولا العاطفة وحدها، ولا حتى المزيج منهما معاً.

شيء إلى جانب، إلى الوراء. لا يهمّني أن أقول إلى الأمام أيضاً، ولكنه إلى الأمام، خصوصاً.

شيء خارج التصنيف، فيه الجنس والعاطفة، ولكنّهما ليسا «هذين» الجنس والعاطفة، فلا هو شخير الخنازير ولا هو سَيَلان العاطفيّين. ولا هو بَرَكة الاثنين.

شيء أقوى وأضعف. أعنف وأرقّ. أكثر جنوناً وأكثر جنوناً.

إنه يد الخيال تعمل سحراً ودماراً، تُفاقم الظلام وتُضاعف النور. الرغبة تجتاح طهارتها.

الرغبة في حال اجتياحٍ شبه دائم لطهارةٍ شبه دائمة.

*

الحقيقةُ عقابُ الغيرة.

*

ليس أدلّ على عذاب الصدق ممّا تفعله الغيرة بصاحبها.

*

يوم ظننتُني انتصرتُ على غيرتي كنت، في الواقع، قد بلغتُ قاع الاحتمال، فاستقلْتُ من المنافسة حتى لا أغار.

ظننتُها قمّة التضحية، وكانت ذروة الأنانية.

*

مع ذلك، لا بدّ من جَمْع هذين النهار والليل: العشق والطمأنينة، التملّك والمسافة، الغيرة وترويضها...

كم أكره هذه «اللابدّ»، وكم يضحكني تركيبها، وكم هي، مع هذا، واجبة ليبقى أمل فوق رأس المحكوم.

*

أَصْدَق ما في الحبّ الغَيرة، قاتلتُه.

*

ليست دموعُكِ ما يُقْنعني بل هو شعوري بعبثيّة حقّي.

فجأةً تغمرني أمواجِ عبثيّة هذا الحقّ وأَستسلمُ متنازلاً عنه لأيّ شيء تريدين، بما فيه الخداع، حتى أتفادى عبثيّة أُخرى أسوأ، أَشمَك: عبثيّة الحقيقة.

*

نستطيع أن نفتدي الحبّ كما نفتدي خطايانا.

*

نقول: الحبّ قوّة، الحبّ أقوى من الحياة والموت، الخ...

عندما أُحبّ لا أشعر بالقوة بل بالضعف. أَنحلُّ في. أمام. أستقيلُ من. أَبتعد عن. أُختطَف من. أنخطف إلى. ينحبس فكري وشعوري، فضلاً عن جسدي.

أين القوّة؟ الحبّ ضعف، وعندما نغنّيه لا نخدعْ أنفسنا بتصويره قوّة، مجداً، تفوّقاً. لا، فهو ضعف. ولكن فيه ثلاثة عناصر (على الأقل) توهمنا أنه قوة:

الأول، خروجه على نمط الحياة العمليّة المنتجة، نازعاً نحو الحلم والرغبة والمتعة. وبهذا هو عصيان على قانون الإنتاج.

الثاني، عنف الفعل الجنسيّ، وهو عنف أقرب إلى الجريمة، ولكننا نحرّف وَقْعَه مصوّرينه قوّة عليا.

الثالث، الطابع الحيوانيّ للشهوة واللذّة، النكهة الغريزيّة، وهي أيضاً نظنّها قوّة لأنها عمياء، ولكنها سقوط في الضعف، وليس لها من القوّة إلّا زخم السقوط.

البشر، في احتقارهم بعضهم لبعض، في حاجة إلى اختراع صفات وهمية يخلعونها على أعمالهم لكي يحبّوها. صفات هي مرّات عكس الواقع تماماً.

والبشر، في بحثهم الدائم عمّن يستعبدهم، في حاجة إلى القوّة ليتحمّلوا بعضهم بعضاً من خلالها، ليكذبوا بعضهم على بعض بواسطتها.

الحبّ ضعف، ومتى أصبحنا في غير حاجة إلى وصفه بـ«القويّ» حتى نَقْبل به، عندئذٍ نصبح أهلاً لحياة السلام والسعادة.

فالضعف هو القيمة لا القوّة.

*

برع الرومنتيكيّون في تصوير المرأة الشيطانة، ممتصّة لُبّ الرجل ومُفْقدته الفحولة.

أين الخطأ في إضعاف الفحولة؟ وهل صحيح أنها تُفقده الفحولة؟

أراها تُفقده النعومة. رجل يَضعف ويرقّ من فرط المرأة، لهو تحسُّنٌ في نموّه. ولكن أن يذهب هوسُه بها أو خداعها له بصبره ولطافته، فتلك هي جريمة. الشيطان لا يكمن إلّا خَلْف الأشياء السميكة.

*

مكانُكِ يجتذب زماني: إنّها لَقوسٌ مشدودة فوق الوجود.

*

يتحدّث الرجل عن التخطّي وتفكّر المرأةُ في العناق.

هو يَخْرج

وهي تَدْخُل.

خلافاً للشكل المظنون في التواصل.

*

الهَجْس يَجْعلكَ مُخْلصاً. الإخلاص يزيدكَ هَجْساً. بالهجس تدّمر حبك.

للمحافظة على الحبيبة وعَدَم قتلها (وقَتْل الذات) حبّاً: ماذا لو تختار ثانية (وثالثة ورابعة الخ...) إلى جانبها، حتّى يتبعثر جهد الهَجْس ويتشتّت ضرره؟

لا أحد يحتمل «تركيزكَ» الدائم عليه.

أمّا إذا وجدتَ من يحتمل ويثابر، فلا بد أن يكون شخصاً من اثنين: إما شديد المناعة ضد التأثر، وإما أشدّ منك تملُّكاً إلى حد يجعله متقبلاً لأيّ شيء منك تمهيداً لابتلاعك.

الأكثر احتمالاً لكَ منك هو الأشدّ خطراً عليك!

*

تتجنّب الحبّ حتى لا تصل بَعده إلى البغض.

تتجنّب البغض حتى لا تصل إلى اللامبالاة.

تتجنّب اللامبالاة حتى لا تصل إلى الحبّ.

تتجنّب الحبّ حتى لا تقع وراءه في القَفْر...

أنت كيفما درتَ خرابُ ما قَبْلَه، أو ذكرى نَفْسك.

موجةُ حركةٍ عمياء،

وصدى موجة...

*

لا يُهوى غيرُهما: الخفّة وعكسها. وهكذا فأجمل النساء

هي تلك الشديدة المهابة عندما تخلع العذار وتطير على جناح الخفّة البرتقالي.

*

حين، في صدري المنهار، يشرق وجهكِ الباسم كأحضان الملاذ، كدموع الخلاص، أعرفُ أنّي أحبكِ.

لن أحبّكِ الحبّ، الحبّ الذي ينتشلني والذي يملأكِ ويغمرنا معاً بسماء تتوسّع فينا، إلاّ بارتمائي واحتضانكِ لارتمائي.

لم يكن الحبّ في حاجة إلى اختراع حتّى يغدو في حاجة إلى إعادة اختراع. **كان دائماً هو هذا**. وكان دائماً.

مضمَّخاً بجميع الخطايا التي أُريد وتريدين، وبغيرها، مما هي الحياة وحَوْلها.

*

إنْ حَذَفْنا الهاجس من العشق، ماذا يتبقّى؟

... والهاجس جنون.

*

أنتَ لا تُحب حبّاً جارفاً إلاّ مَنْ لا يحاول أن يبرهن لكَ أن الحقّ معه.

لذلك أكبر حبّ في حياة الرجل كان ويبقى وسوف يبقى دائماً لامرأة لا تُجادله.

*

ـ هي المساواة بين الجنسين ما يدمّر العلاقة لأنها تمحو المسافة.

ـ أعرفُ مساواةً تُلغي القرب المخيف وتقيم المسافة المشوّقة.

ـ وأيّة مساواة كاذبة هي هذه؟

ـ مساواة تزيل الكلفة «القانونيّة» وتقيم كلفة التوازن في الإغراء والتنافس في التجاذب. تقيم كلفة الشكل محلّ كلفة الجوهر... والحب، والرغبة، والشوق، وكل هذا، شكلٌ أوّلاً، وثانياً، وثالثاً، على «شكل» من الجوهر...

*

ما ساءها أنه خانها بل أنّه أخبرها قصّة ذلك.

أحبّتْ فيه راحتها. ولما صارحها، مستغفراً، دمّر سياج راحتها. كَرِهَتْهُ ظانّة أنها غاضبة من خديعته، وهي إنما تضايقت من المعرفة.

إلى النهاية نظل نحسب أننا نُحبّ. ولكنه ليس حتّى حبّاً للذات. إنه العشق لصورة الذات تعكسها لنا مرآة لم نعرف إذا كان سرّها اللامبالاة أم الشَفَقة.

*

أيّة دهشة تتملّك المرأة عندما تقرأ ما يكتبه الرجل عنها في الحبّ! لعلّها أكثر منه تقديراً لنعمة الفَرْق (الطبيعي والمصنوع) بينهما، ولنعمة الجهل الذي يحمله على تعشّقها بهذه الشاعريّة المجنّحة. ولعلها تُردد أحياناً في سرّها: «ما أغباه!».

ونحن نعرف، وهي ربّما أَعْرَف، أنها لا ترى ذاتها إلاّ في القليل مما يهذي به، مع أنها تستحقّ أكثر منه، ولكنْ في اتجاه آخر.

سوء الفهم الإيجابي، مرّة أُخرى، وربما المرّة الأكثر أهمّية.

أمّا سوء فهم المرأة للرجل فقلّما يكون إيجابيّاً.

سوء فهم الرجل للمرأة وَلَّد حضارة جَمال. سوء فهم المرأة للرجل لم يولّد لها في الغالب غير المأساة والفراغ.

الرجل خَلَق من «وَهْمه النسائي» عالماً ثانياً، عالم الحلم والكابوس، عبْر الأدب والفنّ. المرأة ـ حتّى الآن ـ لم يجنح

بها الوهم إلى «الخلق الإلهي»، ولا خيبة الوهم إلى «التدمير الجهنمي» عبر الأدب والفنّ.

وهكذا «يَرْبَح» عليها ظالماً ومظلوماً!

*

تستطيع أن تقهر كل أنواع الغباوة، إلا حماقة حسناء غبيّة. هنا تختلط الغباوة بالجمال الى حد يختلط معه عليك الأمر: هل الغباوة شرط للجمال أم أن جمال الغبيّة لا يُخترق، مسلّح ضدّ كل الحملات العقلية؟

بالكاد في هذا الكلام طيفُ سخرية. الغباوة الأنثوية مغذّية للرغبة، مفتّحة لقماقم الغرائز. أليست هي أخت البراءة؟ بل ربما البراءة نفسها، ناقصة شفافيتها؟ وليس أشدّ من البراءة اغواء للشيطان.

لا تستطيع قهر غباوة حسناء غبيّة، لأن هذه الغباوة تحميها من ذاتها قبل أن تحميها منك، وتمنحها ذلك الوحي اللطيف والمتين الذي نظنّه فائق الإدراك، وما هو سوى مظهر من الطفولة المتأخرة بقي على نضارته فوق معالم الأنوثة.

*

الجمال الرائع ليس التعبير الفوريّ عن العاطفة الجيّاشة بل هو ثمرة الكبت وقد «ظَهَرَتْ».

*

اللحظات التي لفظتُ فيها «أكرهكِ» كان وجهي «أَصحّ» من تلك التي لفظتُ فيها «أُحبّكِ».

الحالة الأولى نهضةُ بركان ـ الظاهرة الأشدّ تعبيراً عن جَيَشان الطبيعة.

الحالة الثانية بُخارُ حلم.

في الأولى وضْع طبيعي. الثانية هي افتراق عن حالتي البشريّة.

*

كنتِ أجمل لأن ابتسامتكِ كانت ابتسامة فتاة مظلومة تُغالب حزنها، وتُسامح.

كنتِ تُحرّكين شعوراً بالذنب تجاهكِ ونَخْوَةَ الحماية.

لما تَحَرّرتِ، فَرغَتْ عيناكِ.

أأقول: واأسفاه على خوابي العذاب! وكلّ ما أبغيه هو بلاغته من دونه؟

*

في ظل سوء الفهم نشأتْ مملكتنا.

ولما سطعتْ شمس الفهم الفاجرة لم يَعُدْ ثمّة ظلٌّ لغير العَدَم!

*

أَنامُ كي لا أرى سواكِ.

*

ألم تلاحظ كيف أن ما نبتغيه بلا حدود لا نستطيع أن نلامسه إلاّ ضمن حدود؟ «حبٌّ لا نهاية له»، نقول في نشوة. وهو في الحقيقة بكل القضبان: سجن الذات، سجن الجسد، سجن حدود ذات الآخر وجسده، سجن الزمن الذي يقضمهما معاً و«يُمهلهما»، الخ...

اللانهائي حلم يبرّر النهائي ويجعلنا نقبله بأن ننساق قليلاً.

ولا لانهائي إلّا في اثنين: لحظة مجنونة تخرق جدارَها، والموت.

*

المُبْغض يُعلّمكَ. المُحبّ يجمّلك.

العلْم حساب. الجمال معجزة، ولو سوداء.

*

قريباً ما يأتي وقت نشعر فيه بأن المرأة التي تَكلّمنا عليها في شعرنا لم تعد موجودة.

لم تكن موجودة أساساً؟ هذا شأن خيالنا. ما دامت في خيالنا فهي احتمال.

ولكن المرعب هو زوالها حتى من خيالنا، لفرط ما يَغْلبنا الواقع.

إمرأة الواقع الهازمة هذه هي أبشع ما يُمنى به الإنسان في طريق مسعاه إلى فتح ثغرة في قَبْر اليأس.

*

وضْعُ النفور والابتعاد للرجل هو الأنسب حيال بعض النساء. الراغب فيهنّ، كالمُظهر الرغبة فيهنّ، لا يعطيهن دور النافرات المتدللات فحسب بل، وهذا هو الأهمّ، يجْهر برغبة ما لن يعود راغباً إياه بعد زوال الانبهار.

وضْع النفور والابتعاد، في البداية خصوصاً، يُخفّف من

وطأة الخيبة في ما بعد، حتى إذا «تذكّر» الرجلُ لا يرى نفسه سخيفاً تمام السُخف.

*

حين تَمْجُنين تخدمكِ براءتُك، وحين تستعيدين هدوء التعقّل تخدمكِ في رأسي ذكرى مجونكِ.

*

إصغاؤها لشِعركَ أَشْعَرُ منه.

*

أَنظرُ بارتياب إلى امرأة تتعشّق زعيماً أو نجماً، وبعطف إلى رجل يتعشّق خادمته.

أَرى في الأولى موقفاً مظهريّاً تبهره السلطة وفي الآخر اطاحةَ الرغبة للحاجز الطبقيّ.

*

أحياناً يكون اكتفاء المرأة بإعطاء جسدها دون «روحها» هديّة طيّبة لا حرماناً.

*

عندما يقول أحد العاشقين للآخر: «إنْ لم تَغَرْ عليَّ فأنت لا تحبّني»، يطالبه، لا شعورياً، بأن يمنحه مَخْرجاً... فهو يسعى إلى غَيرته لا ليلمس حبّه فحسب بل ليوقعه تحت متناول احتقاره.

*

أتغذّى حتى من تفاهتكِ لأن ابتسامة جمالك حياةٌ وحدها. أمتلىء حتى من فراغكِ لأن احتدام هواي لا يحتاج إلى أكثر من شرارة.

لا ألعب أيّ لعبة إلاّ يربح فيها الحظّ. أعيش في قبضة الينبوع تحت رمل الساعات الحارقة.

*

شهوات القدّيسين تشبه مراحل قَرَف الإباحيّين. الفجوات (أو الربوات) تتلاقى.

لا يتميّز غير الدائم العفّة بلا سقوط حتى ولا تجربة سقوط، والدائم المجون والتهتُّك بلا ملل أو نَدَم أو قرف.

ما أعظمه! وفي رتابته نفسها.

*

تحويل الجنس نشاطاً عادياً كما يفعل بعض الغربيّين؟

يقال إن اللّه طردنا من الجنّة بسبب اللّذة. واليوم يراد حرماننا اللذة بعد حرماننا الجنّة. فتحويل الجنس عملاً عادياً هو إسقاط للإنسان من الحلم، أي من الجنّة ثانية.

الإنسان (بالشعر خصوصاً) يطارد المُطْلَق ويوسّع دوائر أحلامه. والسلطة، سواء مباشرة أو عبر المؤسسات والشركات، تطارد الإنسان لتدجّنه وتطفىء نيرانه.

صراع لم يتوقّف ولن يتوقّف.

*

لا تُعْجبُه لينجب منها بل ليولَد منها.

*

الحرّية بَدَل التملُّك، والصدق محلّ الخديعة.

ولا يعود يغار إلاّ مَنْ لم يقع بَعْدُ في الحبّ.

*

بلى، حبّ واحد. هو نفسه، دائماً.

كلّ مرّة أريده أبديّاً، وأحسّه كذلك. يُشعل بي الأرض

والسماء. وكلّ مرة، مدى أيام، أحسبه قد جاء «هو» أخيراً.

كل مرّة أجرفه بجُماع كياني، ويجرفني بحشود عنفه.

كلّ مرّة يهبّ معي على «الحياة الحقيقيّة»، وقد انخلعتْ أَقفال أبوابها.

أجده كلّما وجدتُه. هو ذاته. أنا ذاته. ولستُ أنا من يضيّعه حين يعود ويضيع. إنه شيء أقوى منّي، أقوى منك، مع أنه أضعف منا يُغافلنا ويضرب ضربته.

أو هو أنا، أيضاً، حين يصغي نصفي الآخر إلى همس الحرّية المتصاعد كفحيح الأفعى بين أشجار القلب.

مسكينٌ الحبّ الواحد. لا شكّ في وجوده، مهما تكاثرتْ وجوه المحبوبات.

وما أعظمه الرجل المكتفي لحبّه الواحد بامرأة واحدة، بوجهٍ واحد، من دون تغيير!

يُخيفني، أكرهه، وكمْ تمنّيتُ أحياناً أن أكونه!

لقد عرف كيف يقهر الضجر دون أن يهرب منه، بل بالتحديق إليه حتّى يتبخّر، تاركاً مكانه لهدوء ليس في جبروته الّا الفراغ.

طوبى لكَ أيها الرجل الذي أَكره!

أَعرف أنك الأكثر راحة، ولكنّي لن أُبادل وإيّاك!

الثبات أرضٌ وجدرانٌ وسقف، وأنا دخان.

الثبات نعمة، وأنا أرفض أن أستحّقها!...

*

تُسَرّح المناوَمة (وضعتُ هذه الكلمة محلّ لفظة مضاجعة لأنّي أرى في هذه من البشاعة ما يَقْطَع حَيْل فكرة الإثارة) تُسَرّح أشباح الكبت وتُلَعّب استيهامات التمنّي في لحظات لا تبلغ مداها إلاّ بالإنحلال الذهني التام، الجارف، حيث تتهاوى السدود لينعتق الخائف انعتاق الثأر.

وأَعنف ما في هذا الثأر أَنّه سراب، وأغرب ما فيه أَنّه يَنْجم عن «نقيضه»: الحبّ.

*

أَقوى ما في هذه الرغبة أنها **تظلّ** ناقصة!

*

أخاف على سعادتكِ أَن تصيبها عينٌ فيَّ هي الصدى

الأسود لسعادات قديمة اغتصبتُها اغتصاباً وظللتُ الى أمسكِ هذا، فاقداً ذاكرة جريمتها.

*

أَيّتها الشمس، كلُّ ما تعلَّمتُ، أَيّتها الكواكب، لمسةُ يديها أَغنى. صورةُ شَعرها وفخذيها أقرب إلى روح الكون. **هي** روح الكون.

سأظلُّ أَتعلّم ولا يُدهشني أكثر من عينيكِ غيرُ اعترافاتكِ. لا تَلُمْني أَيّها الكتاب الكبير المترامي الأوراق إنْ أَنا شربتُ من إطلالة صَبيّةٍ أَكثر وأَطيب من مياه الأسرار ورؤى الإشراقات. لقد أَحببتُ كلَّ حركةٍ في الكون وشغفتُ بكلّ سكون ولكنَّ لمسةَ يديها، أَيّتها الشمس، أَغنى، وصورة شَعرها وفخْذيها، أيّتها الكواكب، أَقرب إلى روح الكون. **هي** روح الكون.

*

... ولا يلحق بنا الفتور بعد قليل، ولا بعد كثير. ونظلّ حُرّين وحيدين كموجٍ بلا بحر!

*

يا ناقلةَ المكان إلى مكان آخر،

«كما كنتُ سأكون دائماً»، تقولين في مَنامكِ.

وتضيفين: «لمّا كنتُ في أثينا رأيتُ بعض الذين أهنتُهم وقفوا وأَحنوا الرأس لي. فجأةً شعرتُ بصداع أَليم لا يوصف، فانتقلَ المكان إلى مكانٍ آخر».

ولا فرق بين نوملكِ ويقظتكِ غيرُ حركة الحلم تتنقّل من داخل الجدران إلى خارجها.

«كما كنتُ سأكون دائماً»، جملةٌ قلتِها لنفسك في المنام، هي نفسها الحياة لا تُحَبُّ إلاّ بعد أن تجتاز السكرةُ بكِ الفاصل بين النجمة والنجمة، مُلْغيةً كلَّ ما ليس هي، موغلةً إيغالها الصاعق في منطقة الأنوار المحرَّمة.

*

كنتُ رافضاً ظلّي

والآن قَبِلْتُه

وصرتُ أُبصر ظلَّكِ أيضاً

الذهبَ السائل، العُرْيَ الهادر بشلّال الغرائز

عُري نهديكِ الشبيه بابتسامةٍ سرّية

عُري بطنكِ الذي لا يغفو أَبداً

عري ظَهْركِ الذي يدور حوله القمر

عري فخذيكِ الطالع من الأعماق

عري وجهكِ الذي عَبَثاً يتعرّى.

ويعاود الخيالُ ميلاده

وتعاودين زيارةَ الخيال.

وفي حِمى هُيامٍ ينغرز فيَّ كخنجر القَدَر الضاحك من سباحتنا ضدَّه

أرى أن الواقع لم يَغْلبني

والخيبةَ لم تجفّف عيون الدهشة.

وإلى قلعة الجبل فوق ملايين السنين

قلعة الرغبات المتلاقية

أَدخلُ وتستقبلينني

يا كوكب التَومين،

وتحت شتائكِ اللوزُ والكرمة

وفي بطانتكِ الليليّة غفرانٌ وبداية

وقلبي أَمام دعوة وجهكِ

شهوةٌ تَسْتنفر ذاكرتها

شهوةٌ مُطْلَقَة لا يلجمها ولا اللّه

شهوة تَكْبس جنوني بسلام الضياع الأخضر

وتُخلّصني من الحقيقة.

*

يداكِ الخفيّتان تفتحان أبوابي الخفيّة.

*

ذاتي الجامحةُ إليكِ تَشْتَغل كمعدنٍ تحت المطرقة

كنحاسٍ يتحوّل إلى ذَهَب

كذهبٍ إلى شمسٍ في مياه بحرها

كفجرٍ إلى غَسَق وغسقٍ إلى ذلك اللون الكحليّ الذي يتراءى لكِ أشبه بحُبٍّ ما قبل الذاكرة

كحديدٍ إلى دم ودمٍ إلى روح

إلى روحٍ أَصفى من سمائها لأنّها عُرِكَتْ في الخيبة الأشدّ
من اليأس

ذاتي الجامحة إليكِ

الراكنة إليكِ

لا تطلب أن تولد من جديد ذاتاً أبديّة

بل أن تَمضي هذه اللحظةُ هنيئةً كالنوم البسيط

وهذا اليومُ بلا جروحٍ، كالراحة المستحقَّة

وهذا العمرُ في ظلّكِ حيث النور أَعمق،

حتى يجيء الموت حين يجيء

أخفَّ من هواء الحريّة،

فكما أن الموت هو خَيَال الحياة

كذلك الحبُّ هو خَيَالُ الموت،

وذاتي الجامحة إليكِ

لن يؤذيَها شرٌّ بعد الآن

لأنّها حيث تنظر عَبْر وجهكِ

لا تسمع غير شوقها

ولا ترى غير حُلمها

ولا تخاف

ما دمتِ اللّحظة وراء اللّحظة وراء اللّحظة

إلى أَن يسْكُت العصفور.

النَحْلُ
والغيم

أَن تَكره نَفْسك هو أيضاً، مرّات، شكلٌ من أشكال النرجسيّة.

*

الوجه الذي ليس فيه **اعتراف**، ماذا فيه!؟

*

المشترَك بين المرهَف والأناني أنَّ الأوّل يظنّ نفسه أنانيّاً والآخر يظنّ نفسه مُرْهَفاً.

*

اكتنزتْ عبادتُه لذاته حتّى بات المساكين يحتمون بها من ذواتهم!

*

ثمّة دوماً واحدٌ تفتديه ضحالةُ آخر.

*

السهر كوسيلة لعدم الشفاء من الحياة.

*

كلّما تَحمّس خطيب في عظةٍ ضد الفساد رأيتُ، في نبرات صوته وعلى وجهه وحركات يديه، صورةً لشهوة القتل.

*

لا، تقديسُ الحقيقة لا يُبَرِّر تمزيقَ الأمانة. السرُّ الذي ائتُمنتَ عليه أقدسُ من الحقيقة.

*

الحظُّ كالطير وأنتَ كالشجر. يحطّ عليكَ إذا اجتذبتَهُ، ويعود فيحطّ إذا لم تُهشّله.

وَجَبَ لذلك أن تكون، كالشجرة، طيّباً للأكل ومضيافاً للإيواء، وأن تكون غير واعٍ لصفتيك هاتين.

*

تفيدنا الذكريات للدلالة على جحود الدهر أو جحودنا.

عديم الذكريات لا يشيخ.

*

عندما صار يُقال، كلما قُتل سياسي أو ذو عقيدة، إن «دم الشهيد لن يذهب هباء، فما ماتت قضيّة سقاها دم الشهداء» الخ... صار دم الشهيد يذهب هباء وقضيّته تموت أسرع ميتة.

كان الاستشهاد يُحيي القضيّة يوم لم يكن قولُ ذلك قد أصبح نَسْخاً عن أصل.

*

ما مِن جبنٍ أروع من رأفة العارف عندما يكون حنوناً.

*

عليمٌ لا يستطيع التبرّؤ، جبان لا يجرؤ على الشهادة: صورةُ مَن، هذه، في أيّامنا وأيّامكم وبلادنا وبلادكم؟

*

رهافته تقوده إلى عدم رفض الموت وتحديقه يقوده إلى الجنون.

*

لا تعرفْ نفسك: حكمة الحلم ودوامه في عمرٍ طويل.

*

قيل: اعرفْ نفسك، لمَن لا مدىً له خارج حدود عقله.

*

لو كان لكَ شجاعةُ الذهاب لاهتزّتْ بذهابك صورتك، ولما بقي لك غير فَقْر الأصل.

ومِن هذا الفقر سيَطْلَع إما ما يُجهز عليك وإما ما يتدفّق نهراً جديداً يعكس أمامك صورةً لكَ لا تعود تخاف عليها من شجاعتك.

*

يُحبّكَ بفضل ما يأخذه منكَ... على أن يعود فيكرهك للسبب ذاته.

*

الصوت الدافئ أكثر إقناعاً من دماغ اينشتاين.

*

لو لم نكن مسيَّرين لما كان لتمرّدنا قيمة.

*

أَفظع ما سمعت في نفاق الجبناء كلام لضحيّة تُقرّع ضحيّة مثلها لأنها قد تكون، ببكائها تحت الضرب، تسبّبتْ بإظهار جلاّدهما منحازاً ضدّهما!

*

ـ من هو الأكثر تحرّراً؟

ـ المجرم المتّفق مع نفسه.

ـ هذا خَلْع للأخلاق لا تحرُّر.

ـ بل تحرُّر. شرّير، لكنه تحرُّر.

ـ وكيف؟

ـ حين يقتلع الإنسان ضميره، ينعتق من الجاذبيّة كما ينعتق كبار المتصوّفين والقدّيسين. لا يبقى ما يلجمه.

ـ والخوف من العقاب؟

ـ على مستوى المجرمين الصغار ينجح الخوف من العقاب.

يحمي «المجتمع». يبقى المجرمون الكبار: الرؤساء، الزعماء، الطغاة، «الأبطال». كلّ التاريخيين.

هؤلاء يصادرون العقاب والخوف والحقوق، فما الذي يعود يوقفهم وقد «تحرّروا» من احترام حياة الآخرين؟

*

لا يُمحى شيء بل يُدْفَن. ما يُدفَن لا يزول بل يُخفى. ما يُخفى لا يَختفي بل يعود.

ومع هذا لسنا أبناء الماضي بل أحفاده. لأن بيننا وبينه آباء آخرين هم النسيان.

*

حَسَدُ البداية طموح، حسد المنتَصَف غيرة، حسد النهاية نهاية.

*

أشدّ ما يُغيظ في مسألة الإفلات من الزمن هو أن الناعمين به لم يقصدوا إليه وأن القاصدين إليه لا ينعمون به!

*

الشكّ هو النافذة الوحيدة المفتوحة في نَفْس المطمئنّ.

*

الظنون أُسس العالم.

يظنّ رهافة شعوركَ ضعفاً فيدوسك ويبني ثقته بنفسه.

تظنّ شفقتك غباوة فتخونك وتستعملك.

يظنّ سكوتكَ، الذي هو احتقار صامت لحقارته، جهلاً، فيؤسس عليه مشروع عمره يستنزفك ويزدهر، وتتراخى أَمامه ازدراءً وشفقة.

تظنّ نفسك بريئاً فلا تعرف جرائمُكَ حدوداً. فلا أعظم من جرائم العارف إلّا جرائم الجاهل.

تظنّ...

ليس الظاهر وحده بخدّاع، بل الخفيّ أيضاً.

*

البداية دائماً جنون.

*

يشفع بالإرهاب فضيلتان: قمعه الآخرين (مما يُغْني نفوسهم

بالذَهَب الباطني)، وتوليده الصمت ولغة النظر والجسد المكثّفة. لغة «**روح الجسد**».

... لولا أن ممارسي الإرهاب، في السلطة السياسيّة وفي المعارضة السياسية خصوصاً، باتوا أغلظ ثرثرةً من «الأحرار».

*

الحياة بدون ناس؟ طبعاً لا. حياةٌ بناس تَخْلقهم أنت، تجعلهم على هواك؟

... وما هي حتّى يفلتوا من قوالبك. سلِ الخالق الأول عن تجربته.

إذن، حياة بلا ناس؟

... ولِمَ هذا الإصرار على حياة بلا صَدْمة؟

خذْها كما هي وتجاوزْ ظلامها بظلام أوفر ونورها بنورٍ أسطع ورمادها بعواصف لا تُبقي.

*

كان لي صديق يعيّر شخصاً بأنه «مهزوم». كنت أجاريه في التعبير قبل أن أُدرك أنه كلما ازدادت هزائمي ازدادت

فرص اقترابي من الجوهر. الانتصارات تتيح لنا أن نمتلىء هواء. تذهب بالإنكسار على الباطن. الهزيمة تمحو مسافات كانت، لولا الهزيمة، ستخدعنا - وخداعاً مُبشِّعاً - بسراب ضرورتها.

*

قبول الكذب لا كضحيّة له ولا كاحتقار، بل كخجل من جَرْح شعور صاحبه إنْ فَضَحْتَهُ: أليس هذا حبّاً؟

*

هل كان آباء الحضارة مخدوعين بالإنسان، آمنوا به وبمستقبله جاهلين حقيقته، فصنعوا الروائع والمنجزات الفنيّة والعلمية والأدبية محمولين بأوهامهم؟

لو عاشوا بعد أعمالهم هل كانوا سيموتون من خيبة أملهم بالبشريّة التي عملوا لأجلها الخارقات، فإذا بهذه البشريّة تُسفّه عبقرية الخَلْق بمواصلة الهدم، فتنتقل من حرب إلى حرب، ومن انتحار إلى انتحار، لا تتّعظ ولا تتقدّم بل تدور على نَفْسها وتجترّ شرورها كاسيةً إياها بأزياء جديدة؟

... ولكنْ هل كان آباء الحضارة حقّاً جهّالاً ومخدوعين؟

بعضهم، ربما جَهْل طهارة القلب التي، كما يقول متّى، لا ترى إلّا الله.

ولكنّي أميل إلى الشعور بأن بعضهم الآخر، ولعلّه الأوفر عدداً، كان «**يعرف**».

وجبروتُهُ أنه كان يتجاهل.

مثل الكبير الذي يتغاضى عن أخطاء الصغير، لا تواطؤاً، ولا يأساً حتّى، بل لأنه أدرك أن دوره ليس إصلاح الصغير، ليس إصلاح البشريّة ومن ثم تقديم العطاء لها، فنّاً وعلماً وأدباً...

دوره هو العطاء... والعطاء لا يمكن أن ينتظر نضج الإنسان إذا نضج ولا صلاحه إذا اصطلح.

العطاء يجتاح نفسه بنفسه، وهو هديّة توهَب غالباً مَنْ لا يستحق.

*

القول دائماً بقرْب الفرج، الدعوة إلى الأمل، الوعد... فيها، إنْ لم يكن جنون الرؤيا وما أقلّه، سرابُ الهذيان، أو ميكانيكية احتراف التبشير، أو موقف لا يشابهه غير روح التسوّل. والمتسوّل هنا يمدّ يده إلى مجهول، هو المستقبل،

قد يكون محسناً وقد يكون لامبالياً وقد يكون قاتلاً وقد يكون متسوّلاً بدوره.

*

ليس جمالُ صُوَر الماضي هو ما يُمَزْمِر القلب الجريح من صُوَر الحاضر، بل كون الحاضر، ذلك الذي كان مستقبلاً موعوداً، لم يَطْلَع إلّا خدعة. وتغدو الحالة مُتْرَعَة بالفزع عندما تلوح، ما بعد صورة الحاضر الزريّة، صُوَرُ احتمالاتِ للمستقبل لا محلَّ فيها لكثير من الأمل.

لولا الشعر. أَقصد: لولا «الصباح الشعري» السليقيّ، ولولا دَفْعُهُ المُخْصب، المفتِّح، المُرْجع موج الدمار، المُلاشي انهيار الروح. إذا تمكّنت التكنولوجيا (أو أي معلوم أو مجهول) من استئصاله، واستئصال غَلَبَة الحياة معه وغَلَبَة شوق الغد، لأصبح أيسر بكثير تعميم العيش مَوْتاً.

أخاف أن يحصل ذلك. أن يكون قد بدأ يحصل. ومع ذلك أؤمن بأنه لن ينجح. هذه الموسيقى العتيقة تملأني تفاؤلاً. هذه السطور في مسرحيّة. موسيقى هذا الفيلم الرائعة. حبٌّ صبيّة وشاب مجتاحاً، في رقّته الكاسرة، حواجز الزمان والمكان. هذا المجهول الفاتن. هذا الشيطان الذي لن أرجمه. هذه التكنولوجيا ذاتها وسحرٌ عجيب فيها

يخاطب أصداء الخرافات. كتابٌ عَرَف طريقه إليَّ. صوتٌ في الهاتف...

في كلّ تبدُّل، مهما سَحَقَتْنا وحوشه، مكانٌ **للطفولة** من جديد.

*

حين ينتبه الطاهر إلى أنّهم كانوا يضحكون خفيةً من سذاجته وينعسون من وعظه ويفعلون عكس ما يوجّههم إليه، يكون قد انتهى الوقت وبات الطاهر على بُعْد نَفَس من النهاية.

وهكذا فحتّى الخيبة ممنوعة عليه إلّا أطيافها، وأمّا الانتقام فحسرة تظل في القلب الذي قليلاً ويخونه.

*

عندما تصرخ «الحريّة!» تقصد حرّيتك. وما إن تتخيّل سواكَ حرّاً، سواك يرتكب بحرّيته ما تعتبر أنت أنه خطأ وبشاعة، حتى تبدأ بالتسامح حيال الدكتاتورية.

*

تربيتُه الدينيّة أفسدتْ أخلاقه!

*

لا يَظهر خيرُه إلاّ مدعوماً بشرّه.

إنْ لم يمارس موبقاته، وبعضها شنيع، لا يستطيع أن يبذل عطاءه، وبعضُهُ رائع.

*

الطيبة تَغْفر؟ كذلك حساب المصلحة. الحقد عاطفة كبار المحبّين، لا «كبار»، بل عاطفة المحبّ كثيراً المجروح فجأةً في سذاجته.

المحبّ كثيراً لغيره أَم لذاته؟ الفارق يكاد لا يُغيّر.

*

يعفو عنك، أيضاً، من نَوَى بكَ استعمالاً أنفع له من الثأر!

*

الأفضل منّا هم في الغالب الذين لا يعرفون أنّهم أفضل من أحد.

*

لستَ ترثي ميتاً بل أنتَ ترقّص فوق جثّته كلماتك غوىً. ليس في ذاتكَ غير احتفالٍ بنفسك ولُعابها.

أنت وسواك منذ مئات السنين. وبينكم أكثر من مفتعل صَلْب نفسه على قضيّة، يحمل جروحه الزائفة، تحت احتقاره العميق للآخرين، ويستعطي عليها.

أنتم باعة الرثاء حَمَلة الصلبان المزوّرة، لا أعرف واحداً منكم قَدِرَ أن يُحبّ.

*

مثلما أن الحياد قد يكون أفضل الظروف المناخيّة لاستقبال الإلهام، كذلك فإن اللامبالاة هي أفضل موقف قد يُغري الحظّ بالمجيء.

ولكنْ إذا تعمّدتَ اللامبالاة جافاك الحظّ. فاللامبالاة المحظوظة هي أيضاً نوع من أنواع الموهبة.

وهكذا نرجع دوماً إلى تلك المناطق المجهولة، الحاكمة بما لا ندريه، وحيث لا تعود ألفاظ مثل الإرادة، العقل، التصميم، تبدو أكثر من تعريفات محدودة لمعلومات محدودة.

*

أن تكون مستعدّاً، من دون أن تعرف، لِتَلقّي النعمة.

*

الحُرُّ يُعطيها، الحرّية، لا يأخذها!

*

كلّ موت هو خطأ. لذلك كلّ موت هو فاجعة، إن لم يكن للآخرين فلصاحبه.

القتل انتصر على هذا الخطأ بجعله حادثاً مدبّراً.

الإبادات الجماعّية عمّمتْ إلغاء هذا الخطأ: جعلت الموت قفزة مشتركة تتشابك فيها أيدي المئات أو الألوف ويلغي فيها خَفْقُ القلوب الكثيرة شعورَ الغياب الفرديّ. عندما يموت ألوف في لحظة واحدة فمعناه أن أحداً لم «يتميّز» عن أحد. عدالة في الموت تحجب المأساة الفرديّة إذ تُعمّمها على جوقة ضخمة بلا وجوه. وكأنهم ذهبوا من ضفة إلى ضفة، لا إلى الغياب. الرفقة تُنعش...

الذي يموت ميتة مشتركة يفقد اسمه.

المجرمون الكبار، قَتَلة الجماعات والشعوب، أدركوا هذا السرّ. ولكنهم عرفوا أيضاً أن الإبادات الجماعيّة، ذلك

القتل السهل، لا توفّر النشوة التي يوفّرها لهم قتل فرد واحد.

*

يكاد يكون في كل عبقريّ شيء من الآلة.

*

حياة مؤلَّفة من اشتهاء زوال الآخرين. حتى إذا هُم زالوا شعَرَ بالخيبة لأنهم أفقدوه سلّم نجاته!

*

كلّما استعمل أحدهم عبارة «جيل الشباب» شممتُ رائحة ديماغوجيّة.

*

يتظلّم البيروقراطي التافه، المتحكّم كالحَشَرة الدؤوب في أزرار العمل، يتظلّم قائلاً للمنتج الحقيقي، أي المؤلف الخلّاق: أنت تعمل لحظة وتذهب. تعال شاركني أعبائي إذا أردت مشاركتي السلطة...

ماذا كان يحصل لو أجابه الخلّاق: أنا مستعد أن أشاركك أعباءك، إذا شاركتني أنت أيضاً أعبائي...

ماذا كان يحصل، لو أن حكَماً أو محكمة قررت العمل بهذا المبدأ، والمحاسبة على أساسه؟

لكان انتهى جميع الجالسين وراء مكاتب الإدارة والتشغيل والسلطة، وظهرت على الملأ تفاهة مصّاصي دماء الذين فيهم حقاً دماء.

*

شهوة الوصول أفقَدَتْه الضحك.

لكن الأرذل إنْ ضحك، لو تراه!

*

عندما أصبح عاديّاً وبلا معنى أصبحَ ولا غنى عنه.

عالم التفاهة هو الأشدّ تماسكاً.

*

تحويل الايروتيسم إلى بورنوغرافيا

والبورنوغرافيا إلى مَعْراة بلا إثارة

والثورة إلى ثورة عليها

والتمرّد إلى أفلام أميركيّة

والشعر إلى إعلانات

والحرّية إلى ما يُندّم عليها

والكلام إلى عِلْكة

والموسيقى إلى ضجيج

والغناء إلى عواء

والرسم إلى نهايته

والعفوية إلى بَرْمَجَة للعفويّة

والروح إلى عضلات

والحياة إلى ذكرى

وغداً إلى نسيان حتى للذكرى...

وربما عندئذٍ

يتجدد الأمل، من أعماق رماد المنفى، في العودة إلى الحقول الخضراء والشقراء بين أحضان الجهل الأول.

*

لهجة الدمج بين الحيويّة والموت، بين المستقبل والدم، بين العدالة والقتل...

كل الايديولوجيات، الثورات...

رؤوس كثير من المفكّرين إذا فتحناها وجدناها أكثر إيواء للجثث من المقابر الجماعيّة.

*

الابتسامة من طرف الخدّ، تُرافقها مراوغة في العينين: هزء بالآخر لا يُفسّره ما هو مدعاة في الآخر للهزء، بل ما هو في نَفْس المستهزىء من اغتياب في صميم الحضور.

هذا النوع التافه من «المتمسخرين» هم بين ما ينفّر من السخرية، مع أنها، لو جاءت في محلّها، أَخلاقيّة نبيلة.

*

مُحبٌ لواحد ويكره الجميع. محبٌ للجميع ويكرههم فُرادى!

*

تفوح من بعض طقوس «عبادة المستقبل» رائحةُ عَدَميّةٍ لا تختلف عن العَدَميّات الأخرى إلاّ بكونها «متفائلة»!

*

تنفيسُ التَمَشْرُح في التصرّف، في التعبير. تنفيس الغرور. تنفيس كل أنواع الكذب.

ولكنْ حذارِ المساس برهافة الصدق ظنّاً أنها تَظاهُر، فهي لا تُمَسّ.

*

السلوك الفاضل عند الكثيرين مضجر لا لأن الفضيلة مضجرة في ذاتها بل لأن معظم ممارسيها أو مدّعي ممارستها إمّا منافقون وإمّا سطحيّون. لذلك يكتفون بعرض واجهاتها التقليديّة، وهي واجهات تُنعّس. وهكذا تغدو الفضيلة بسبب هؤلاء تحريضاً للناظر إليها على الرذيلة.

*

ضميرُك الحيّ يسلب ضحيّتكَ حقّها في الشعور بالظلم حتّى الثمالة.

ضميركَ قاطعُ طُرُق.

*

عزيزٌ نبيل غاب أمس لم يؤذِ في حياتِهِ إلاّ نَفْسه. كان كتلة صمّاء من البراءة.
أمثاله هم أكثر مَن أبكي. إنهم حِملان الله الذين صمموا

بوعيهم التام أن يظلّوا حِملاناً لا لغباوة عقولهم بل لحكمة قلوبهم وطهارة أرواحهم التي رأت بشاعة قوانين الدنيا، بشاعة إيذاء الضعيف واستعمال البريء، بشاعة السلطة، بشاعة كل من ليسوا بسطاء القلوب ودُعَاء رحماء مساكين فقراء، بشاعة كل هذا المشهد الطاغي المنيّب الكَلْبان، رأت الحِملان، رأى صديقي النبيل النقيّ ذلك فتراجع، خبّأ جرح روحه بصمت ابتسامته، ودخل إلى مغارة أمّه، يعيش من الذكرى ولا حتى من الحلم.

*

تكثّفتْ أنانيتكَ وبانت كالقلعة فصرتُ كلما خارت قواي، أَلوذ بكَ حتى يبتلعني إعصار عبادتك لنفسك!

*

جليد الأنانية يحفظ صِبا الجسد، الطِيبة تَحفظ نور الوجه.

*

ينتقم بعض الحسّاد من محسوديهم عن طريق المساواة، فيساوي الحاسد، في حديثه أو كتابته، بين الكبير ومَن هم دونه قيمة، فتذوب أهمّية المهمّ والأهمّ في ضحالة الجميع

ولا يتبقّى فوقهم أكبر منهم إلاّ المتحدث عنهم بذلك الأسلوب «الديموقراطي».

*

فاشل مستسلم أَفْضَلُ من حسود طموح. الأوّل، لفرط «نزوله»، «وَصَل» وبات جزءاً من الحقائق البليغة المُخجلة ما فيك من ادّعاء. الآخر، لفرط «شدّه» التزويري نحو ما يطمح إليه، يُسبّب للمكان إزعاجاً ولذوي النفوس الطيّبة تعكيراً هو أَفتك أنواع التلويث.

*

أيّ عظمة في الطموح، ولولا الطموح لما ظَهَرَتْ أنياب ذئب الإنسان؟

*

النحس حماية سوداء.

*

نفضح الأكاذيب بخطاب تمزيقيّ صراخيّ ينتفخ بمبالغات أو «مثاليّات» هي بدورها أكاذيب.

تراث «فَضْح» الكذب أكثره كذب.

*

هناك تمثيل غير تمثيل الأدوار المستعارة. هناك تمثيل أصيل هو تمثيل الذات.

عَيْشُها بتقديمها مُمَسْرَحَة، بحركات الاستعراض.

وهو الأكثر استهواء لمن يشاهده.

ولكني سوف أظل أُفضّل عليه تلك الأصالة التي تكون بدون تمثيل ذاتها، تكون بلا تقديم مسرحي وبلا بحث عن جمهور. حتى لكأنها لا يهمها إن صدَّقتها أو لم تصدّق.

وما إن تكتشفها في شخصٍ حتى تشعر بقوّة مروعة فتحت عينيك وسحبتكَ إلى تيّار خارق من خجلك بذاتك كيف كنتَ لا ترى.

*

بعض أشكال رَفْض السلطة، سلْطة، وأسوأ من تلك.

أيُّهُ، رَفْضُها الحقيقي؟

الذي صاحبُه امتلكها (أو يستطيع أن يمتلكها) وتخلّى عنها.

وحتّى لو ظلّت تلاحقه يظلّ يرفضها ويفضحها، ويُهديها إلى الراغبين.

*

يَحْسدكَ **لأنه** يُحْسنُ إليك.

*

أن يكون الانحطاط الحالي عارضاً سطحياً وأن يكون ما تحته استمراراً للتقدم نحو ما يجعل الإنسان سيّداً على مصيره.

أن يكون تذمّرنا تبرُّم القصير النظر وتشاؤمنا ظلماً وحماقة.

هذا رجاء لي.

*

أليس السقوط، في النهاية، أجمل؟

ربما للناظر من خارج. أمّا صاحب المعاناة، فقد لا يرى في سقوطه أو عذابه الجمال بل القهر والدمار. وأمّا الرائي من خارج فهو يرى الجمال لأنه يشعر بذَنْب كونِه مراقباً لا ضحيّة، فيدفع ضريبته إعجاباً بمأساة الآخر وانتباهاً لعلامات «المجد» فيها.

*

ألا نسمّي مرّات كَدَرَنا الخفيف حزناً عظيماً لا لشيء إلاّ لأننا لم نوفّق، لدى انسياب فصوله، بجمهور نعرض أمامه ذلك الكدر؟

في الوحدة يُمتحَن الصبر.

*

الذي يتحدّث عن «ظاهرة» اقتلاع الجذور في العالم العربي ويردّها إلى الاستعمار الغربي (متناسياً ما كان قَبْله من احتلالات واجتياحات ماحية بدورها للتاريخ ومدمّرة للأصالة) تفوته ملاحظة كون مجتمعات هذا الاستعمار الغربي قد استُهدفت هي أيضاً على مدى حقب عديدة لعمليات اقتلاع جذور...

مُقْتَلَعو جذور يقتلعون جذور سواهم.

لم يَثْبت على التاريخ غير الفلّاحين والأميّين والأشجار.

*

ولكنْ ما عيب اقتلاع الجذور؟

أليس ضياع من هذا النوع انعتاقاً؟

انعتاق فاقد التوازن؟ ليكن، لِمَ لا.

وما عيب فقدان التوازن في عالمٍ لم يعد توازنه ينتج غير الارتطام بجدران؟

*

... مَنْ إذا تجاهلتَ اساءتهم لم تَرْقَ إلى درجة الصَفْح لفرط ما هُم تافهون.

*

يتسبّب المجتمع بالبغاء ثم يضطهد أهله.

*

البغاء أسهل على المرأة لأنها تعتقد أن العلاقة الجسديّة المأجورة مع الرجل أسخف من أن تؤثّر في روحها.

وبهذا تكون البغيّ أكثر تقديراً للروح من مشتري خدماتها.

*

إذا كانت الزانيات والداعرون والداعرات والمنحرفون يقعون «تحت طائلة القانون»، كما تقول العبارة الخرقاء، فلماذا لا يُسجن أيضاً الأدباء والفلاسفة والفنّانون الذين، جزئياً أو كلّياً، يصرفون أوقاتهم على تصوير عالم المتعة والإيغال في

دهاليزه والتفنّن في كشف كوامنه وابتكار مذاهب جديدة فيه؟ أليس هؤلاء، إذا ظللنا نأخذ بالقاعدة الغبيّة التي تحلل للقانون اضطهاد الزنى والبغاء، أشد «خطراً» على المجتمع (أي أكثر إحساناً إليه، في ميزاننا) من أولئك الذين يكتفون بالممارسة؟ أليس الخلّاق أهمّ من الخليقة؟ الخليقة واحدة بينما الخلّاق هو العدد اللانهائيّ.

طبعاً ليس هذا تحريضاً على المبدعين، بل بالعكس، فأنا أعتبرهم مقصّرين في مجال التأليف المتعوي بل في مجال الحريّة. لكن ما أريده هو أن تمتدّ الحماية المعنوية التي تشملهم (ويجب أن تشملهم أكثر بكثير مما هو حاصل حتى لا تعود حماية بل تصبح حرّيتهم حقّاً لا نقاش فيه) لترعى فئات الممارسين، وهم الأكثر ضعفاً أمام المجتمع.

*

فكّرت: قد تَصنع الحضارة عبيداً لكن الحضارة لا يصنعها غير المتمردين والأحرار. ثم تذكّرت الذين رُفعت الأهرامات على أكتافهم، وأعمدة بعلبك، والمدن والكاتدرائيات...

*

لا تختبئْ وراء كذبة عشْق الحقيقة لتمارس كراهيتك.

أعرفكَ أخي في ما تُسمّيه «الإعلام»: كبريت الحرائق في قلوب الأضعف منك، خنجر الابتزاز، سُمّ الدسّ، غَرَضيّات عِقَد النقص والغيرة والحسد، التشهير تحت ستار نشر «المعلومات»، تزوير المعلومات بحجّة خدمة عقيدة ما، الإيلاغ في القاذورات لأنك لا تعرف من الإثارة غير فضائح المجارير... لا تختبئْ وراء كذبة عشْق الحقيقة لتمارس كراهيتك.

لو قصدتَ الحقيقة، كارهاً ومُحبّاً لا فرق، لكان سبيلك بنوع آخر من الضحايا.

لكان سبيل من يعرف ذاته ويتواضع بها جدّاً، أيضاً، قبل مباشرة الحملة ـ تواضعاً يفحص الذات ويكشفها قبل طعن الآخر، ويحاسب الغاية الحقيقيّة من الكلام قبل كتابته ونشره.

لا، «محترفو» نشر «الحقيقة» ليسوا أنبياءها ولا خُدّامها. إنهم في الغالب نوعان: أصحاب ضجيج فوّاشون، وعُهّار يتاجرون بأيّ شيء.

*

ما يُؤلم في تلاشي الملمح الاريستوكراتي هو أن الطغيان،

عوضاً عنه، ليس للشعب بل للطبقات البورجوازيّة. ما تفتقده عند الاريستوكراتي يعوّضك إياه الشعبي. والعكس. أمّا البورجوازي فهو الأتفه، عادات وتقاليد رمادية معقّمة وأخلاقاً ضحلة.

النبل والمجد تجدهما عند الاريستوكراتي والشعبي. كذلك الانحلال والفسق. في كل الأحوال، تجد الحياة تنبض أقوى من حدودها، أبعد من الطبيعة.

البورجوازي ليس حتّى في الوسط، بل في مَنْزلة العداء الدائم لكل بُعد من أبعاد الافراط الذي يتوهّج به كِلا الاريستوكراتي والشعبي. إنه إنسان الضحالة، أدباً وسياسة وسلوكاً وتفكيراً. وحتى جسده يتشكّل على صورة رداءته، فلا هو جميل ولا هو بشع، بل عادي لا سرّ في العينين ولا خَطَر.

البورجوازي هذا، هو أكثر من يكتب اليوم وينشر ويوجِّه، ويدّعي شهادة ونبوّة. الفاتر المُطْفأ، يطفىء القناديل بَدَل أن يشنّ العواصف.

وذكاء الشطارة يريد أن يحلّ محلّ توهّج العبقريّة، وحسابات حسابات تحلم بأخذ مكان الأصالة والنعمة والموهبة والتجربة وجميع الحقوق والاستحقاقات.

بورجوازيّة فَبْرَكَتْ لنفسها عوالم «تُحاكي» العوالم الأصيلة، لغة وخيالاً وأساليب، واستولت على وسائل الإعلام وسخّرتها، وعلى المال ووظّفته، وعلى الحكم والأجهزة ودور النشر والمسارح وشركات الانتاج السينمائيّة وشركات الاسطوانات، ووطّدت دعائم أمبراطوريّة «النَمَط العادي» و«الإنسان العادي» و«الشذوذ العادي» و«الخلاعة العاديّة» و«الجريمة العادية» و«الجنون العادي». «الحياة العاديّة» و«الموت العادي». «الإيمان العادي» و«الكفر العادي».

بورجوازيّة تَتْفيه الحياة، حياة تقضي على بقايا الاريستوكراتية وتسحق الأمل في التمرد عند الشعب. حياة بلا فضاء ولا هاوية، بلا هالة ولا خطيئة، بلا تجربة ولا وقوع في التجربة ولا مقاومة للتجربة.

سميْتُها اريستوكراتية وكان يمكن أن أُسمّيها أي شيء آخر يعطي المعنى المفهومَ الذي أردتُه. وسمّيته الشعب، وهو أيضا الجموع، «البسطاء»، العائشون يوماً بيوم.

وسمّيتها البورجوازية وهي، طبعاً، لم تعد كذلك حرفيّاً، تحت موجات الزمن. ولكن التسمية التقليديّة لا تزال، هنا، أوفى بالغرض، إذ تُقلّب في الرأس سلالة من المعاني والصُوَر لا يستطيعها التحليل المباشر، ولو أكثر دقّة.

صار لنا، طاغياً، نبلٌ ليس بنبل، ومجد ليس بمجد، وانحلال ليس بانحلال وفسق ما هو بفسق.

حياة «مرتَّبة» انتصرت على حياة مجنَّحة.

إلى حين.

*

المميت هو ما لا يترك مسافة بينكَ وبينه تسمح لك بإعادة اختراعه.

ينسحب هذا على امرأة، كما ينسحب على فكرة أو حلم أو قطعة من الزمن.

*

موهوبُ غباوةٍ حتى لتَدْفُق هذه من عينيه كفيض السحر.

فبعضُ السحر من غباوةٍ أيضاً!

*

كلّ تصلُّب ديكتاتورية. وتصلّب الثائر على الديكتاتورية، الذي يَحْسَبُ عناده فضيلة، وجهٌ من وجوه الديكتاتورية.

*

في صِبا النهضة قسوة. في شيخوخة الانحطاط لطافةٌ ورحمة.

*

لا تَسْتنهِضْ إلّا الحبّ. سواه إذا سمعكَ ونَهَض، فلعلّك نادم جداً.

*

لعلّ أحد أكبر الأخطاء الشائعة في «صورة» الحرّية أنها والعَلَنية صنوان. الصحافة، كل يوم، تصيح: حرّية! كذلك الفنون الاستعراضية، فضلاً عن خطب المعابد والمناسبات. في الأدبيّات هذه، الحرّية جمهور أو شخص يتظاهر في الشارع صارخاً بكل ما يعتمل (أو لا يعتمل) في نفسه، أمام أكبر عدد ممكن من المشاهدين.

ربما كان هذا نوعاً من أنواع الزعيق كلّما انتفخ انحسرت رقعة صداه. أما الحرّية فبالعكس، كلّما أوغلتْ ممارستها في الافراط (وهذا، في الحقيقة، نداؤها المدمّر لها والمثبّت لوجودها في وقت واحد) اشتدت حاجتها إلى العزلة.

حتى لتبدو كلّ أنواع السجون، من الأديار والصوامع

والمناسك إلى القصور المحصَّنة والغرف المُغْلَقة والزنازن، ناهيك بالجباه المسوَّرة على أحلامها، **هي المآوى المثلى للأحرار.**

*

الأوّلون، الأوّلون جدّاً، حين لم يكن تاريخ ما قبلهم قد أصبح تراثاً ضخماً، أو حين لم يكن قد كُتب وبات «مصموداً» للتعليم والتقليد، ما كانوا ليقولوا، عشيّة زيارة سيقوم بها زعيم منهم، أو مؤتمر سيُعقد، إنها ستكون زيارة «تاريخية» أو مؤتمراً «تاريخيّاً».

كان التاريخ لا يزال إلى الأمام.

بعدما بات التاريخ مَرْجعاً، أصبح يُطلَق كصفة، أَصبح قيمة تُنافِس بل تبزّ قيمة الحياة.

كان التاريخ خَلْقاً، صار ذاكرة.

كان ابن الحياة فصارت الحياة تقلّده.

هل تستطيع الحضارة أن تبدأ من نقطة بكْر؟ أو أن يتعلّم البشر قراءة أخرى للتاريخ غير قراءة النَسْخ والمَسْخ هذه؟

*

تلومني لحديثي عمّا ليس موجوداً في الواقع. ليتك تضمّ ذكاءك إلى ما تدعوه مثاليّتي، فنصهر ما هو موجود وما هو غير موجود، ويتجسّدان معاً لكي تراهما.

أنا أراهما لأني لا أنظر بذكائي بل بعين هي فيَّ وفيك ولكنّك لا تفتحها ولا تغمضها لأنك تحسب نفسك أهمّ منها وما أنت إلاّ بأعماها.

*

الذين يجتهدون كي يكتشفوا لنجاحك أسباباً تجعلكَ غير ذي فضلٍ فيه.

الذين تَشعر أمامهم بواجب الاعتذار عن نجاحك.

الذين يطلبون منك مساعدتهم في البرهان على عدم استحقاقك لنجاحك.

الذين تخاف عليهم من نجاحك فتفضّل أن تضمحلّ في الغياب على أن تشاهد القهر أو الحَسَد أو رثاء الذات في عيونهم.

*

أثورةُ حقّ، بربّك، أم غيظُ أَنا مجروحة في غرورها؟

وملسوعة في تشامخها لا حانقة على الظلم؟
ومنفَّسٌ انتفاخها لا متّضعة بالألم والتوبة؟

*

ليس المتواضعُ من يَكْره المغرورَ بل المغرورُ الآخر.

*

الجمال باب الوَحْدة وباب الوِحْدة.

*

هجاء مُوَض العصر قد يُخفي نفسيّة كارهة للتغيير ورافضة للآخر المختلِف.

وهذا ما أخشى أن أكونه حين أفكّر في مواقفي المندّدة بالعـديد مـن الأنماط العصريّة، والأميركية على نحو خاص.

أليس الأجدر بنا رؤية الطيبة والجمال خَلْف كتل الرداءة وما نظنّه انحطاطاً؟ أين قوانا الروحيّة إذا لم نستطع أن نتجاوز غضبنا الأوّلي؟ وعلامَ غضبنا إن لم يكن على ما لم نَألَفْ؟ وكيف ندّعي حرّية أو خيالاً أو أي شيء إذا كانت كلّ دعوانا استلقاءً على عاداتنا؟ أليس ما نرفضه هو بالذات

ما يمتحن إنسانيّتنا وقدرتنا على النظر أبعد من كراهياتنا الجاهزة؟

قبل أن أنقد الآخرين، ولا سيما شباب آخر القرن، فلأنظُرْ من أين تنبع اعتراضاتي.

*

يصعقُ الخارقُ في الطبيعة والإنسان، في الخلْق والصُدَف، لا لأنه باهر بل لأنه حقيقيّ.

كل خارق هو حقيقيّ. والحقيقيّ هو وحده الخارق. وما لا يَخْرق فهو ليس بحقيقيّ.

الحقيقة الموجودة خارج نطاق النظر العادي، في الواقع «الفعليّ»، وراء حُجُب الرتابة والتقليد والاستسلام للعجز والاسفاف.

والموجودة هنا في «هذا» الواقع، لا في الهرب منه ولا في تجميله، وإنما في اختراقه إلى إحشائه، حيث تنفتح لنا الأبواب.

*

حزين لا على من فَقَدَ إنما لأنّ «الباقين» ما زالوا أحياء!

*

سوف يظلُّ تيّار المجاملة ما بين وارثي الخصومات آخذاً مجراه، بقليل أو كثير من النفاق، حتّى يشعر جيلٌ لاحق بأنه لم يعد هناك شيء يميّز شيئاً عن آخر ولا يضع مسافة حيويّة، أو خلافاً، بين اثنين... فأيّ حياة للفكر ستكون هذه؟

يومئذٍ أكبرُ الظنّ أنهم سيعاودون لا الخلافات وحدها بل الصدق. فالصدق يولّد الاختلاف والاختلافُ يولّد الحيويّة.

الآن، خشيةُ المعارك، فضلاً عن بشاعة الذكريات الدمويّة معنوياً وجسدياً، تُقرّب المسافات ما بين بلد وبلد، دين ودين، مذهب ومذهب، حزب وحزب، عِرْق وعِرْق، رجل وامرأة...

غداً ستُستعاد المعارك، الحقيقة البغيضة المحرِّرة.

*

حين كانت البطلة في الأفلام الأجنبيّة تقول للبطل مودّعة: «إلى اللقاء»، فيهزّ برأسه دون أن يجيبها بكلمة تشفي

غليلها (غليلي) قبل أن ترحل، كنت أبقى على جوعي، مُحْبَطاً.

لم يقل كلاماً على الكلام.

كنت أشعر بنقص.

لأنّي ابن ثقافة حَكيٍ، تُرضي ضميرها بالتحيّات اللفظيّة، الكاذبة معظم الأحيان.

صمتُهم ذاك، في أفلامهم، ليس فقط أَبلغ، بل دليل إنسانيةٍ أعمق.

لكنّه، سبحان إلهِ العادة، مُحْبِط لمَنْ وجدانُه في مَحْض لسانه.

*

التواضع أيضاً دليل كبرياء.

اللامتكبّر ليس في حاجة إلى إظهار التواضع ليبدو وديعاً.

المتواضع «بالع» كبرياءه.

*

الذي يمحو ماضيكَ يمحو مستقبلك. وأحياناً يؤدّي لك

بذلك خدمة لأنّه يجبرك أن تكون كلّك في حاضرك، مجمّعاً فيه الحياة كلّها.

*

... ومَنْ لا يُزَغْبر؟ الأنقياء السذّج؟ وما الحاجة الى صدْق الانقياء السذّج حين الحاجةُ كلُّها هي أَنْ يَصْدُق الأذكياء، المحتالون، حتّى تنفرج تلك الآفاق ويهطل المطر السجين على الأرض المريضة...

*

المخدوع يبدو أقلّ إنخداعاً إذا قَهْقَه!

«والآن فاذهبْ»

تَصدح الموسيقى، في نهاية هذا المقطع من أغنية المطربة، هاتفةً فرحَ الملحّن بمطربته وبصوتها أكثر مما هو نغمٌ للكلمات.

هذا هو أروع تلحين: عندما يعشق الملحّن صوت مؤدّيته حتى ليَغدو تلحينُه للصوت حضانةً بكل الجوارح، حماية بما وَسِع العقل والقلب، وإعلاءً للصوت على اللحن مهما يكن اللحن بديعاً والملحّنُ عبقرّياً.

العبقريّ ليس متواضعاً فحسب بل معطاء حتى الفناء.

*

يجد الناسكُ اللّه في السكون كما يجده المرهَف في الموسيقى. لأن الموسيقى هندسةٌ للسكون على ميلوديات

تُجسّمُهُ لتجعله، في الواقع، أكثر تجريداً.

*

تستطيع أن تكتب عن هذا الكتاب إلى ما لا نهاية، فهو من التلوّن والفراغ بحيث يتّسع لكل الاسقاطات.

*

لا أحسد أحداً أكثر من شخص ليس مضطراً إلى إخفاء حقيقة رأيه. وأكثر ما أُشفِق هو على كاتب مضطر إلى إخفاء حقيقة رأيه. وأكثر ما أَحتقر هذا الكاتب حين يكون أنا.

*

حيث تزداد المرارة قد تزداد قوّة الخَلْق ولكنّه خَلْق بلا كثير من الحقيقة.

وحيث يزداد الصفاء لا تزداد قوّةُ الحقيقة فحسب بل قوّة استرجاع الجنّة.

وحيث تزداد قوّة الحلم، هناك يكون الطوفان الجديد، تهطل أمطاره من نوم الحالم ومن يقظته باتضاع البساطة الخجول، تُطهّر الأرضَ التي لم يطهّرها ولن يطهّرها غيرُ مياه

الأحلام، المياه المخصبة العدم، وحيث من يَغْرق هو الذي ينجو.

*

إلى أيّ مدى أكون «حرّاً» ما دمتُ مُراعياً، وأنا أكتبُ، جانب القرّاء؟

*

رسول العقم: يعلّمكَ كلّ أسرار التركيب الشعري، ما عدا لبّها: ما لا يُعلَّم.

*

البحث عن مراجع في التراث لاتجاهاتنا الجديدة يهدد، إذا لم يُحسَن توجيهه على طريق «إنساني» شمولي وليس انتمائياً ضيّقاً، بإضفاء السمة التعصبيّة (العرقية أو الدينية أو المذهبية أو القومية...) على ذلك البحث.

جزء من سرّ جمال ما يعجبنا في ما يعجبنا هو تغريبه لنا. لا نستعجلنّ «توطين» الأدب الغربي في جذورنا، لأننا حينذاك سنخسر الاثنين.

*

ليس تحويل الشعراء شعرهم إلى سجلّ لتفاصيلهم وانطباعاتهم ظانّين أنها «مهمّة»، ليس هذا هو الذي يُضجر، بل طريقتهم في ذلك.

منذ غادر الشعراء، مع الثورة الرومنتيكية، دير الكلاسيكية بموضوعيتها ولا شخصانيتها (الظاهريتين، على الأقل) وهم لا يكتبون إلّا عن أنفسهم. ولكن بقدْر غير هذا القدر من الجاذبية والألق، كان يزداد وهجهما كلما ازدادا اندلاعاً من التجربة الحية، عميقها وقويّها، وكلّما ازدادت الذات القابعة وراءهما غنىً وعبقريّة.

بين شعراء اليوم من يدوخون بفراغ ذواتهم. يُعجَبون بضحالات، يفتتنون بتفاصيل يوميّات تافهة، لا تتميّز بشيء على صعيد التجربة ولا على صعيد التعبير، وتخلو من الجاذب والمفاجأة.

هل نُعجَب بعد ذاك أن لا يقرأ أحد ما نكتب؟

ليست النرجسيّة سبب نفور الآخرين من النرجسي، بل وَزْن نرجسيته ونوعيتها وطريقته في عَرْضها. هذه هي التي تجعل الآخر يرى ذاته في ما تحكيه أنت عن ذاتك، فيهتم لك ناسياً أنك أنت وحاسباً أنه هو. أو، بالعكس، تتركه بارداً حيالك، لأنك لم تستطع أمرين: أن تعشق ذاتك حتى

تعميمها على الملأ، وأن تكرهها حتى جَلْدها أو قَتْلها نيابةً عن الملأ، أو فداء له.

وكما أن الـ «هُم» في الكلاسيكية لم تكن كافية لتصبح قاعدة ما لم تلازمها عبقرية الخلق، وما لم تتحول الـ«هُم» إلى أنا كلّ واحد، كذلك فإن الـ«أنا» ابتداء من الرومنتيكية ليست كافية ما لم ترافقها عبقرّية الخلق ذاتها وما لم تتحول إلى أنا لكل واحد، أي إلى «هُم» الآخرين.

الذات الضعيفة والزائفة والمقلّدة لا تنعكس. همومها لا تَهمّ. والتعبير عنها إساءة استعمال لحقّ التعبير.

*

جَعْلُ الشعر حزباً. هذا ما عمّقه بعض المتكلّمين على الشعر «الحديث».

حزب، وبالمعنى الخانق.

الشاعر بريء من هذا التلوّث الوجداني، والشعر بريء من هذه الآفات الاجتماعية.

الشاعر يكاد لا يعرف كيف حصل له الشعر، ولا كيف يستمر، ولا ما أهميته. وهو لا يفتّش عن كسب مؤيدين، ولا يلاحق الشّعراء والنقّاد، ولا «يجنّد» الأنصار والمترجمين.

وهو يظنّ غالباً أن الآخرين أشعر منه.

*

الفصاحة قد تعني أن صاحبها ليس عنده مشكلة، ولا ألم فيه، وأن وقته فارغ ومستعدّ إلى حدّ أنه يملأه بالعدوان الأكثر تشويهاً لعذريّة الفراغ: جثث الكلام وقد رُقّيتْ إلى مصاف المومياءات.

*

يكفي أن أفكّر: لو قرّرت أن لا أكتب إلاّ التجربة الجديدة، أو الفكرة الجديدة، أو اللغة الجديدة الخ... فماذا كنت سأظلّ أكتب؟

يكفي أن أقوم بتفكير كهذا لكي أكتشف كم مرّة استسلمتُ إلى التكرار. إلى نسيان ما كنت قد قلت. وإلى الاتفاق مع الذات.

لم يكن ولا مرّة مشروعي «التأليف»، بل الوجود بشكل يُنسيني الموت. وإذا كنت أكتبُ فتكثيفاً لهذا الوجود، لا بديلاً منه ولا وصفاً له.

الوجود بشكل يدوّخ في رأسي فكرة الموت.

أو يُنسيني فخّ المجيء إلى حيث سأُجبَر، بعد المؤالفة، على الانصراف.

*

يغمرهم موج المعاناة، فيجلسون ويؤلّفون.

تنهشهم الهواجس المدمّرة، ومع هذا يكتبون.

يغوصون في التجربة تجتاحهم زوابعها، تمتقع منهم الأكباد، تَنْشَلّ المفاصل وتمتلىء الصدور بالسمّ، ومع هذا يملأون الدفاتر.

كيف يستطيعون؟

قليلةٌ المرّات التي كتبتُ فيها وأَنا نَهْبُ الحالة. لا أَقدر أَن أنفصل وأَنا فيها، أَن أَنفصل «للأدب». يصعب عليَّ أَن أَقول شيئاً لأَحد. ليس بي، حين أَجتاز نَفَقاً، أَي نوع من أنواع السيطرة على الذات، ما خلا السكوت المستسلم للأعاصير.

عندما أَغرق، أَغرق.

الصدق الذي أَلتمسه في الكتابة، أَجده فيها أَقلّ مما أَجده في الحالة، في الاستسلام لنَهْش الحالة. وهي أحياناً تنهشني حتّى الموت. عندما أخرج من الحالة تذهب معها أصالة

ذلك الصدق، ويعود «الكلام» ليأخذ مكانه في النوافذ والقاعات، وعلى السطوح.

الحالة وحدها صادقة صدْقاً مَحْضاً. إذا استطعتَ أن تكتبها وأنتَ فيها، فعليكَ بها. ستفعل أكثر من الخَلْق الأدبي.

ولو مجرَّداً من «الفنّ».

*

يستهلّ المفكّر كتابه بالقول: «كلّ شيء قيل ولم يبقَ ما أُضيف» الخ.

نفاق لطيف يخدّر به حاستنا النقديّة ليستدرّ تساهلنا، قبل أن يبدأ يبهرنا بما يظنّه جديداً لم يُقَل.

حتى الحكماء سذّج؟ ممثلون؟ بل حتّى ملوك الهزء.

*

ليس أنتَ من أكره بل الكلمات. فهي ليست كلماتي. لقد شاهدتُها الليلة مع سواي، مع مئات، وأُلوف، وملايين سواي.

أكرهها لا لأنّها جميلة تَغْدر أو بشعة تُلحّ، بل لأنها خانت وعودها.

وحيثما وجدتُها كرهتُها.

وحيثما سمعتُها كرهتُ الشفاه الكاذبة التي ترسمها.

لهذا لم أعد أُريد أن أقرأ غير ما يُهرّبني. فهو وحده لا يَعِد بل يفي. وهو أكثر تواضعاً منّي. وأكرم.

ليس هناك أردأ من منظر كلمة خانت وَعْدَها. فهو يقول كم كان الموعود مخدوعاً، وكم هو مهدَّد بأن يظلّ.

*

لعلّ هذا هو أحد أسباب الأزمة بين الإنسان والكتابة، وبينه وبين المطالعة.

حتى الشعر، أَنقى الأصوات، لم يَسْلَم من الوعد الكاذب. ومع هذا يبقى الأملَ في احتضان نجمة الهداية، الأمل في أن يحمل حُبَّ النظرة الأولى المشرق بعد ليل الهبوط.

لماذا؟

لأنه الأَقْدر على الغوص في اليأس والأقدر على تجاوز اليأس بتثبيت الحياة أجمل مما كانت، مغسولة بعَهْدِ براءةٍ جديد، وجديرة، مرةً أخرى، بأن تفاجئنا.

*

الشعر مكتوباً بالكلمات؟

لا أعرف؛ ليس حكْماً بالكلمات. بالألحان، بالموسيقى، بالغناء؟

كان ذلك قبلاً، في سحيق الزمان، منذ بدأ «النور يُغنّي» كما يقول عزرا باوند، وليس ما يمنع أن يتكرر، بل لعلّه متكرر.

جورج شتاينر، الشغوف بتحليل الماضي والحاضر لاستشفاف المستقبل، يقول أكثر، يقول: لعلّ الموسيقى اليوم، فضلاً عن الرياضيّات، قد أصبحت اللغة البديلة من كل اللغات.

ولماذا لا يكون في طغيان السمع على المطالعة، غرباً وشرقاً، مؤشر إلى نوع من تبدّل الذوق وانتقاله من الشعر المكتوب بلغة الكلمات إلى الشعر (إلى الشعور، إلى الشاعرية، إلى الشِعْريّة، إلى الخيال الشعري، إلى العالم الشعري، أيّاً يكن) المكتوب بالنوطة؟

أو، إذا مضينا أكثر، لماذا لا يكون هذا التعبير عن الشعر بالصورة المتحرّكة نغماً وكلماً، أي بالسينما؟ بل بالشاشة عموماً، كبيرها وصغيرها، والأكثر فاكثر صغراً حتى حجم الجيب، والإصبع؟

إمكان آخر، أفق أكثر استيعاباً ولو كان أقلّ «تركيزاً» من الفنون الأخرى، ويقع خارج تنظيمها الهَرَمي الطبقيّ.

افتراض وآخر. ربما غداً شكلٌ مفاجىء لا عهد للبشريّة به. «فنٌّ» جديد، أو «علم» ما، أو شيء منسيّ في طيّات المتاحف وأعماق المكتبات المغبرة، يعود إلى واجهة الذوق. إنّ البشرية تتخّبط في صميم عهد الانتقال، وسط حُمّى التبدّل، وما يحدث الآن، رغم ما في بعضه من جوانب شبه بظواهر سابقة في التاريخ، لم يحدث مثله إلاّ في الأحلام، والكوابيس، والرؤى الهائلة والرائعة.

ومهما يكن شكل الصوت الذي سيصل إلى الغد حاملاً على قلبه المخلِّص وجدانَ الإنسان، سوف يكون جوهرَ هذا الشكل هو روح الشعر.

*

قراءة تُنسيني أنه ما من وقت للقراءة، تُنسيني نفاد صبري وتلتهم توتّري.

وقتٌ أشدّ احتراقاً من رأسي، أو بارد برودأً مسيطراً موقداً ساحقاً كوجه أبي الهول.

كتابٌ كهذا...

*

ما أقوله نَدَمُ ما أقوله.

*

ليس الإلهامُ إملاء الأثر على المؤلّف، المؤلّف ليس مجرد مراقب لإلهامه، كما كان يسخر فاليري. الإلهام هو النفحة الأولى، الشرارة المولّدة. الباقي مجموعة عناصر من المعاناة، أبرزها «كيفيّة» استحقاق الإلهام وكيفيّة صنعه.

إن ما نكتبه (ما نرسمه، ما نلحّنه...) سابق لنا بمعنى أنه يأتينا بارقُهُ مما يتخطّانا. لكننا لسنا مؤدّين فحسب، وإلاّ كنا أبواقاً. المؤلّف خلّاق بالفعل لأنه يمزج المُعطى وَحْياً، بجسده هو وروحه، ملصقاً دمه وبصماته على الهواء الإلهيّ.

الخَلْق الفنيّ لقاء الألوهة والبشريّة حيث يفقد كل منهما هُويّته الإنفصالية ويتّحدان في هوية لا تحق للأول من دون جَسَد الآخر ولا للآخر من دون روح الأول.

*

حرّية ملاقاة الكلمات لأقدارها.

حريّة تَلاقي الكلام والحياة، حياة الفكر وحياة **الإفراج عن الحياة.**

*

تَخيَّلْ العالم في سكون تام. لا ضجيج. لا ترويج. لا حكي عن، بل «الشيء» نفسه، الكتاب عارياً (مع أن الكتاب لا يمكن أن يتعرّى تماماً).

الكتاب فجأةً على حافة جدار، تلتقيه عصْر يومِ نزهةٍ في ضباب. وحده. وحدكَ. صمتُه. صمتكَ. بلا تمهيد. كلقاء مجهولَين سيصبحان حبيبين أو عدوّين. لقاء مسافر بنغم مجهول يستوقفه ويسكنه.

كم هي الكتب التي تتبقّى عندئذٍ؟

كم هي «الأعمال»، الأفلام، اللوحات، الأصوات؟

كم هي الأديان؟

والأبطال؟

والفلاسفة؟

والأفكار؟

والعادات؟

الخ...

*

يقول الناقد بتفخيم عن المؤلّف: «منذ نصف قرن وهو يواصل الجهاد على هذا الطريق، منتجاً من معاناته حتّى الآن أكثر من خمسة عشر عملاً» الخ...

عدد السنين كدلالة على الأهميّة. الطعن في السنّ وقد أُظهر كموهبة أو كعبقريّة.

العكس طبعاً أصحّ. كلّما مضينا في العمر ونحن «نواصل الكفاح» على «الطريق نفسه» مواظبين على «الإنتاج»، أثبت ذلك أكثر فأكثر عجزنا عن تغيير شيء في ذلك الشيء الذي نكافحه.

الأقدميّة في التأليف دليل تقصير لا دليل استحقاق.

*

رأيت عبارة «الأميرة دموع» مكتوبة بخط عريض على مؤخرة شاحنة ضخمة كانت تجتاز طلعة القنطاري في بيروت وسط ازدحام مُشاة وسيارات، وهالني أن أحداً لم يتوقّف أمامها ولا أشار إليها بإصبعه ولا ألقى عليها نظرة.

انحنى قلبي أمام هذا العنوان البديع الذي أجمل ما فيه، بَعْد جماله، أنه حُرّ بلا كتاب.

*

ما حاجتي إلى القول عندما يكون سواي خير القائلين؟

وإلى الكتابة عندما يكون أفضل ما أعبّر عنه، أمام الإشراقات، هو التجاوب؟

حين أقرأ بودلير، رمبو، لوتريامون، حين أقرأ دو ساد، بلزاك، دوستيوفسكي، حين أسمع صوت فيروز حسناء نائمة في الغابة، حين أسمع موزار، بيتهوفن، حين أتغلغل في الجو الدادائي السوريالي وأستحمّ في سديم إنبلاجاته وطهارة ظلماته الشفّافة، ما الذي أحتاج إلى قوله وكتابته بعد ذلك؟

أَعرفُ أن هذا التفكير هرطقة على مبدأ الحضارة. فهذه تحتاج إلى التقدم المستمرّ كما يحتاج البحر إلى حركة أمواجه الدائمة.

لكنّي أعتقد أن البحر يتمنّى لو تتوقف أمواجه قليلاً حتى تستطيع الأرض والسماء تأمّل جماله في هدوء، حَقّ قَدْر جماله.

هل صحيح أن البشريّة استهلكت روائع الأدب والفن

وكشوف الفكر؟ هل قرأتْ وسمعت وشاهدت وعاشت كلّ ما يُستحق؟ هل أعطت «الأشياء» (المؤلفات، التأملات، الأكوان الخ...) حقّها من المعايشة قبل أن تُردّد أصداءها وهي تَحْسَب أنها تتجاوزها أو تلغيها؟

كلام ضد المنطق، لا ريب. وأُتابعه بمزيد من الجنون: حبّذا لو يحصل توقف تام عن الإنتاج لفترة انتقالية، ليقرأ الجميع ويسمعوا ويشاهدوا و«يصمتوا» أمام ما سبقهم منذ فجر التاريخ. ولو ظُلم بعض الموهوبين. أليس في الاستمتاع تعويض عن الأمتاع، أحياناً، وخصوصاً متى كان «الامتاع» مشكوكاً فيه؟

الخلّاق الأكبر من القامات المألوفة، والذي هو صوت لا صدى، لن يستطيع الامتثال لرغبتنا الهوجاء، على كلّ حال، ولو أراد. واختراقه لها هو على الرحب والسعة، لأنه سيكون من نوع الأقدار التي لا تُقْمَع.

وأمّا الآخرون فلمَ يتعذّبون؟ أَلكي يُعيد كلّ واحد قول ما قيل، وغالباً أردأ؟ أم للتعبير عن «المعاني الجديدة»؟

صحيح، مع كلّ طفل يولد العالم جديداً والمعاني جديدة. ولكنْ ليت «الأطفال»، بمعجزةٍ ما، يؤجّلون التعبير «الفنّي»

عن «المعاني الجديدة» إلى ما بعد «التعزيل». تعزيل المكان من الضجيج.

مَسْح الطاولة قبل استئناف الجلوس.

السكوت قبل الكلام.

زيارة الموجودين، معلومين ومجهولين، قبل الإضافة إليهم.

فكرة فاشستيّة إرهابيّة، تماماً.

ولو كنتُ عادلاً لبدأتُ بتطبيقها على نفسي.

*

أقول باستمرار: الشعر، لا حَلّ إلّا به، لا خلاص إلّا بطريقه، وهلّم جرّاً.

ماذا لو كان هذا الكلام بهتاناً؟ تردداً لما «يشبه» ما أريده، لا لما أريده، ذلك الراقد في الطيّات الغائمة، وراء الأفكار الجاهزة في كلماتها؟

أقصد، مثلاً: ما وراء الشعر.

الشعر، وما لا يستطيعه الشعر.

الشعر، وما لم يشتمل عليه إطاره.

الشعر، وما يستعلي عليه الشعر، دَرْجاً على عادات لم

يتمرّد عليها (إلاّ بصورة حيّية، غير جوهريّة) حتى عُتاة المتمرّدين.

حَقّاً، سئمت القول: الشعر! الشعر!

وماذا لو لم يكن هو؟

لو كان، لا بالإضافة إليه كما كنت أُشير الآن، بل... بعكسه!؟

أيّ: بـواقعيّة مادية بَحْتةٍ لا تحفل بغير الطبيعة والطبيعي ولا تقيـم وزناً للخيال إلاّ بكونه بخاراً فوق الرغبة ولا للحلم إلاّ كبطانة للأفكار والشهوات؟

ماذا لو لم يكن الشعر سوى عزاء المساكين من عجّز الفعل ويتامى الروح، فضلاً عن مرضى نرجسيّة بائسة؟

أهربُ من هذه التساؤلات ثم اضطر للوقوف أمامها.

وكثيراً ما تراودني.

وفي حالات لا علاقة لها بظروف آنيّة ضاغطة، بل في حالات صفاء.

الأنَّ ذلك صحيح سأقول مايأتي: مهما يكن، أياً يكن، في أيّ وقت كان، الشعر هو الباعث، وهو الدرب، وهو الرفيق

على الدرب إلى ذاته التي هي، على دوام السير، المزيد فالمزيد منه؟...

أم أن الخوف من مواجهة عكسه هو سبب هذا القول؟

لا. يقيناً لا. ولو كذّبني المظهر الغشّاش.

*

الشاعريّة (ربما هذا التعبير أصحّ من «الشعر») هي أُمّ الجمال أو الحقّ أو الخير، أو ثلاثتها معاً، كيفما اتجهنا. وحتّى عندما تتنكر هذه الثلاثة للشعر والشاعرية. لكنها في لغتي شاعرية تستوعب أضدادها وتشتمل على نقائضها وما لم يأْلَف العقل نِسْبتَه إلى الشعر وهو منه نشوءاً أو مآلاً.

*

أَضَعُ في كلمة شعر عكس كلّ ما يَقْهرني.

*

بعض النقد أجمل من الأثر الذي يتحدّث عنه. وكما يتفوّق الخَلْق على مسبّبه ومسبباته أحياناً، كذلك قد يتفوّق النقد على مُسبّبه الخَلْق. نحن هنا أمام ظاهرة لم ينصفها... النقد، ولا الدارسون الكبار، مع أن دائرتها تتسع.

وفي بعض الأحيان، أَمام تردّي الوضع التأليفي، كأنما البحث الأدبي والنقد أَضحيا فنّاً إبداعياً قائماً بذاته، لم يعد الإقرار به ينتظر غير النقّاد!

*

ما نكرهه في صورة المؤلّف الكلاسيكيّ ليس أدبه بقَدْر ما هو شخصه. نتخيّله ـ بحقّ أو بدونه ـ فوق جنون الألم، على الحياد مما يمزّق أبطاله أو مما يعالجه على الورق.

المؤلف الحديث أجمل ما فيه أنه يضع نفسه وسط العواصف، حتى ليغدو في أحيان هو بطل أبطاله أو كبرى ضحاياه.

الكلاسيكي القاضي، الموضوعي، المتكلّم عن الأقدار الفاجعة فيما قَدَره الشخصي ليست له هالة عَيْش الفاجعة، بل مجرد هيبة الدارسين لها.

الحديث، ابتداء من الرومنتيكي خصوصاً، حتى لو كانت مؤلفاته هزيلة، يشدّنا إليه بشهادة حياته.

وفي النهاية، ما قيمة نتاجٍ، ولو عمارة مسرحية أو شعرية، لا يتراءى خَلْفَه طيفُ حياةٍ انغمس صاحبها في جروحه حتى

خَرَقَ جدار ذاته، ولو أضاع معها «صوابه الأدبيّ»؟

*

كلما لجأ أحدهم أمامي إلى المنطق التحليليّ شعرت شعوراً محسوساً يُلْمَس باليد، بأن عملية نزوح بدأت من منطقة «المعرفة بلا شرح» إلى مناطق «الشرح مع انتقاص من المعرفة».

*

يمارس الشعراء العرب الشطْح، ويعتنقون العرفان، ويعيشون الحلم، ويهربون (إلى الأمام وإلى الوراء وإلى الجهات المختلفة)، ثم يكتبون مقالات عن حاجة العرب إلى... العقل.

هل هو الجهل بالكلمات؟

... ومعه، الرغبة اللاواعية بأن تكون الاستقالة من العقل امتيازاً لهم وحدهم، وبأن يكون الآخرون عاقلين وعقليّين، حتى تستمر اللعبة.

والحقّ معهم... ما داموا لا يدرون.

*

ما أطول المشوار مع الفكر العربيّ... يدْعونه للتحرر من الظلاميّة اللاعقلانية... وإذا تحرر، سيُفرط في العقلانية... فيدعونه للتحرر من قيود العقل الصارم والعودة إلى الجذور... وإذا عاد، سيقولون له: ليتك ما عدت... وهكذا...

قرون الغرب الوسطى، الآن في العالم العربي.

لا بل قرون الغرب كانت أكثر تقدميّة وأقل ظلاميّة، في الواقع.

مشوار طويل نعيشه سلفاً.

ونتائجه غير مضمونة.

ولماذا العذاب؟

للخروج من «التخلّف»؟

ولماذا لا نُجرّب تَرْك التخلف يبلغ تمامه، لعلّ في ذلك الحل؟

ولماذا الحل؟

إلى آخره.

*

غناءٌ مثاليّ: معه تُركّز، وفي اللحظة نفسها تُغلغل في فرارٍ دافىء.

هذا هو، مثلاً، غناء فيروز مع الأخوين رحباني.

*

التركيز والفرار معاً: حضور الوجود كلّه فيك، وعودته وإياك، وعَبْرك، إلى أرض السماء المفقودة.

*

موسيقى تُخلّصك. تؤجّل الزمن لك. تُلغيه.

موسيقى تَحميك.

وأنت في الوقت نفسه، أو بعده بقليل، تحميها أيضاً.

قارئ يحمي سطوراً طالَعَها مثلما تحمي الأيقونةُ الصدر الذي يحملها، ومثلما يحمي الصدرُ أيقونته.

*

الكبير هو من يظنّ نفسه أصغر من الصغار. كلّ خلّاق كان معجباً بواحد أو أكثر ممن هم دونه أهمّية، وكان يعتقد

أنهم أعظم منه. لا يختال ويتباهى إلاّ الطبل الفارغ. الحقيقيّ، الصميم، جاهل لا لقيمته بل لتقدير قيمته بالميزان الاجتماعي والأدبي. يعرف أنه محمول على شيء، وحامل لشيء، ويشعر أنه مختلف، وقد يُفتتن بذاته، ولكنها ذاته التي، في كُنْه حالها، لم تعد ذاته هو بل الذات التي على صفحتها تنعكس الأشعّة. وأَما افتتانه ذاك فملاحقة للحقيقة، إغراق في تأمل المجرّدات عبْر ما يتراءى للسطحيّ أنه نرجسيّة.

الخلّاق الأصيل، الكبير، الأكبر من الزمن، إله فَقَدَ ذاكرته (مؤقتاً؟) بين مقلّدين، فراح، لبراءته، يتمنّى لو يستطيع تقليدهم!

*

لا «تُعبّرْ» عن الفكرة: دعْها تُحقّق «**ظهورها**».

*

أأنا من يَكْتب؟ ما أعدتُ قراءة شيء لي بَعُدَت المسافة بيني وبينه إلاّ شعرتُ أَنّ ثمّة من يَسْكنني فأكتب حين يريد وبعد أن تُعييني مغالبتُه.

*

أكبر فرسان التراجيديا هو الشاعر الذي يتمسّك بشعارين يؤمن بتكاملهما: الحبّ والحرّية.

*

الآن وقد أصبحتْ لا الكلمات فحسب للجميع بل منابرها ومسارحها وشاشاتها وأمواج أثيرها وصحفها وكتبها وأغنياتها وإعلاناتها وعلومها، ولجميع الجميع،

أصبحت الكلمةُ الخلاّقة أندر وأعظم ما في التاريخ.

فلم يسبق أن ظهرت أهمية الكلمة المختلفة عن التداول الاستهلاكيّ والابتذال، كما ظهرت هذه السنين، وكما ستظهر أكثر فأكثر.

وهنا تبرز أيضاً أهمية الشاعر. فقد كان وحده على مر العصور (عبر القصائد والملاحم كما عبْر الروايات والمسرحيّات والقصص والمقالات، واليوم السينما أيضاً...) الذي يشيل الكلمة الخلاّقة، الجوهرة، من بين العميان ليزرعها في سماء القلوب.

*

«ماذا تريد مني هذه الموسيقى؟»، صاح ذات يوم تولستوي،

وقد أحسّ في رقبته، وهو يسمعها، «بضغط عجيب». وأيضاً: «إنّ لها فيّ تأثيراً رهيباً». وكان يهرب منها.

لمَ؟ خوفاً ممَّ؟

لعلّ من يشارك في إحساس الذعر هذا أمام الموسيقى قد يشاركني في اقتراح الجوابين الآتيين: إمّا خوفاً من «انحلال» إرادتنا، وإمّا خوفاً على ثرثرتنا (الخارجيّة والداخليّة) من طغيان الموسيقى عليها وإسكاتها.

فالموسيقى تجرف الإرادة كما تهدّ الأبواقُ الأسوار. والموسيقى تُسْكِت لا لأنّها بنْتُ الصمت فحسب بل لأنّها روحُهُ معبَّرٌ عنها بلغة إيقاعات الوقت وقد أَصبح قطعةً أبدّية خارج الوقت.

*

المدّ العاطفي العارم الذي يحْمِل أُغنيات أُم كلثوم، مازجاً بين الإيقاع العفويّ الأفريقي والبكائيّة التركيّة ـ العربيّة، على مشهد خَلْفي بعيد قوامه ترسّبات من مصر الفرعونيّة المكتنزة بالأحجيات والأسرار، هذا المدّ الذي لا نهاية له متكرراً لا تكرار العجز بل الشوق، هذا المدّ أجمل ما فيه هو هذا الشَبَق العاطفي بالذات، والعاطفيّة ليست نقطة ضعفه، كما يظنّ بعضهم.

هذه العاطفيّة هي أيضاً ما أهواه في صوت عبد الوهاب وألحان فريد الأطرش.

لا تبهرني عظمة صوت أُم كلثوم ومقدراته الإعجازيّة. كما لا تهزّني عضلات أصوات مُنشدي الأوبرا. ولا أتجاوب، في العزف، مع البراعة، بل دوماً مع الشعور.

مع فيروز والرحبانيين العاطفة «مشغولة»، كما يعبّر سعيد عقل، على النحو اللبناني في العناية بالشكل. وأحياناً حتى هَوَس التأنّق. لهذه المدرسة سحرها، كما لتلك الجيّاشة المندفعة عفو الخاطر.

وفي المدرستين شواذات، كعبد الوهاب في مصر الذي كان أحد روّاد الصياغة «الحديثة»، والذي له تراث في الاتجاهين. والرحبانيان أيضاً في بداياتهما كانا أكثر تساهلاً مع «الثرثرة» في أعمالهما، بل الأحرى مع الكلام العادي، ثم راحا يقطّران حتى بلغا ذروةً في الشفافية المقتَصَدة والإيحاء اللمّاح.

العاطفيّة في الغناء العربي ليست عيباً كما اعتاد المثّقفون أن يقولوا، بل هي روح شعوبنا كلّها في هذا المنطقة من العالم، والأغنية هي بلّورة هذه الروح. وأجمل ما في هذه الشعوب

هي هذه الروح، ولو حاول بعض البلا روح إقناعنا بأنها نقيصة وبسببها «تَخّلفْنا».

*

فكرة لعدم كتابة سيرة ذاتيّة: إذا أخفيتَ عيوبك فعبثاً تكتب، وإذا كَشَفْتَها ستبدو مغالياً في الوقاحة وكأنك تُمثّل، أو كأنك تُبيح شيئاً لتخفي أشياء.

دع غيرك يكتبها عنك. عيوبك تحت قلمه ستبدو كأنّها عيوبه، وأمّا فضائلك فالذي لن يصدّقها هنا، لن يصدّقها هناك.

*

غباوةُ عينَي شاعرٍ يقلّد، وهو يتلو شعره، «صورة» عن الشاعر هي، في أَصلها، غَلَط!...

*

الرواية «الأدبيّة» المجترّة حنينها تنطلق من تصوّر للشعر أظنّه خاطئاً: تعتقد أن الشعر محضُ عمليّة تَحْنين.
وتعمل على محاكاته عبر السرد، الفَلْش، بدون اختباط العناصر.

هل الشعر هكذا؟

هو أيضاً هكذا، أحياناً، حين تدعو الضرورة، وفي سياق أكبر بكثير من هذا التفصيل.

الشعر قوّة. الرواية تحاكي الشعر إذا أرادت ـ وهذا طموحها ـ في رؤياها. ولا مانع أن تحاكيه في أسلوبها أيضاً، بلا وقوع في الإنشائية. تحاكيه في قوّته وقد تتغلب عليه. وأما تقليد رديئه في عواطفه السهلة، كما يحصل في الكثير من الروايات حيث تعبق روائح النرجسيّة المتمرّية في عقم تداعياتها المملة، فمن جملة تفاهات نهايات هذا القرن التي لم تعد تعرف أن تنتهي.

*

الفصاحة كذّابة **دائماً.**

*

يُستدلّ على مقدار كذب الفصيح من مقدار فصاحته. وكلّما ازداد خصبها ظَهَر علوّ كعب صاحبها في فنّ الدَجَل.

*

المشكلة في القارىء الجيّد أنه، معظم الأحيان، يصبح كاتباً!

*

الشعر ليس بُومة. لكنَّ الفرح في الشعر لا يعني الهَبَل.

*

لغة فقيرة وحتى ناشفة، إذا كانت صادقة، أبلغُ من ديباجات فطاحل «الإنشاء».

وتُعرّي سماجة الفصاحة وافتعال «المؤثّرات اللغويّة».

*

التخلّص من شهوة الانتقام يخفّف من حدّة اللغة ويعوّض عنها بكثافة عمق الألم. وحزن الاحتقار ـ إن لم يكن الصَفْح ـ أكبر من هَيَجان النقمة، الذي إغراؤه الأول يبقى «الحيويّة» الخارجيّة لا جوهر المعاناة.

*

لماذا نقول إن الفنّ، إن الشعر، يموت إن لم يخرج من الذات؟

لأن «الداخليّ» يجعل اللحظة العابرة قطعة حياة دائمة. لا يكون فنٌ بغير هذا التحويل للمفتت في اليوميّ، إلى مكثَّف في المُطْلَق.

وحتى يصير هذا التحويل، لا تكفي الاستعانة بالشكل الخارجي. لا الإخراج في المسرح والسينما ولا «الكتابة الحديثة» وحدها في الشعر والقصّة، يكفيان، إذا كانا مستعارين من الخزانة «الداخلية»، لإضفاء «الداخلية» على المضمون إن لم يكن المضمون **نابعاً** أساساً من تجربة الذات. الفنّ ليس «تعليقاً» على موضوع. ليس مواكبة لقضية. ليس منبراً لالتزام سياسي أو مذهبيّ. ليس شيئاً مضافاً. قد يُساعد قضية، قد يتبنّى فكراً، ولكن من ضمن معاناة خلّاقة تُعيد تكوين القضية أو الفكرة وتخترقها لتتعدّاها إلى ما لم يكن في حسبانها. الفنّ ليس تعليقاً بل هو الخَلْق. الشعر أكثر أيضاً.

*

إذا أردت أن تقتل شعراً، ضَمّنْه نكتة.

وهو ما يحصل لدى بعض الشعراء.

يحتمل الشعر الدعابة والسخرية واللؤم. لا يحتمل النكتة. كما لا يحتمل النوادر وما يُسمّى طرائف. ولا «الجلاَطة»

التي يظنّها بعض الكتّاب جرأة فضائحية ثَوْريّة وإن هي إلاّ «جلاطة».

*

الشعر يرفض النكتة لأنه مواجهة مع المصير، والنكتة تهريجة اجتماعيّة. الشعر يَقْبل الهزء حتى الهذيان، بل خصوصاً حتى الهذيان، لأن هزءاً مثل هذا هو نوع من أنواع العصيان الذي هو في ذاته شعر بالغ التحرير.

وبعض النكتة في كتابات هؤلاء الشعراء ليس حتّى مكوَّناً من نادرة أو حكاية، إنما من استعمال مفردات وصيغ قد تبدو لهم كفيلة إحداث صدمة هزليّة أو عبثيّة. والنتيجة مسكينة.

وكلّ هذا معظم الحين إمّا تحت شعار الطرافة وإما تحت ستار «التميّز». وعلى حساب قارىء كان يأمل في هزّة جمال فنال كزكزة أسنان.

والمعذرة لهذه النكتة السخيفة.

*

يتمرّد،

يتراجع،

ثم يموت.

أو:

يتمرّد،

يصمت،

يذهب

يصبح آخر.

أو:

يتمرّد،

ويموت.

أيُّهم؟

الثلاثة.

فالشهادة ذاتها، متنوّعة.

الثاني، الذي سَكَتَ فجأة وسافر وتاجر وصار المال همّه، لم يسقط. هو عُمْر التمرّد انتهى فيه فتوقّف. صار آخر. محاسبة هذا الآخر أشبه بمحاكمة بديل. بل أكثر: هذه الاستدارة الجذريّة هي، بالذات، خَتْم أصالة التمرد السابق لها.

عمّن أتكلم؟ عن رمبو، بالطبع. سكوته النهائي لا هو

نقيصة ولا هو فضيلة. إنه، بعد الإنطفاء، قبول «تام» بالانطفاء وعدم إتيان محاولة لاصطناع شرارات تكمل مرحلة النار الأولى. في هذا، كما قلت، برهانُ صدق هائل.

الأوّل، لوترِيامون، الذي تمرّد (مالدورور) ثم تراجع (الأشعار) لا يقلّ أصالة وصدقاً. وبالذات أيضاً تراجعُهُ علامة صدقه وأصالة تمرده.

كذلك أيّ واحد من الذين قَرَنوا تمرّدهم بلعنتهم وموتهم (كائناً ما كان شكلهما).

لا يقلّ أحدهم عن غيره براءةً. ولا شك في صدق تمرّدهم. الشكّ كان سيكون واجباً لو اعتمد المتمرد مَطّ تمرّده بالقوّة ليظلّ يطابق صورته الأولى. هذه هي الخيانة وهذا هو السقوط.

وسيظلّ رمبو ولوترِيامون رمزين حيّين من أكبر رموز الشعر لا بتمرّدهما فحسب بل بكيفيّة رفضهما لتزوير النفس.

*

أن لا يخون صدْقه، أي أن لا يقع، أيضاً، أسير صورته.

*

وبودلير؟ لم يتوقّف حتّى النَفَس الأخير. أين تضعه إذنْ؟

إنه ما وراء الرفض والقبول، ما بعد التمرّد والاستسلام. وحتّى ما ادّعاه هو لنفسه، تَجَاوَزَهُ إلى حيث لم يكن يَعْلم. إلى حيث لا يزال يبلغ بنا إلى القمم من ذواتنا، ويغوص ثاقباً تخوم الأعماق.

*

قد يكون صحيحاً القول عن شعرٍ ما إنه لا يشبه شعر أحد، ولكنْ هل يمكن القول إنه لا يشبه شيئاً، ولا حالةً من الحالات؟

يتراءى لي أن كلّ شعر (كل شعريّة) أحببته لاقى في ذاتي أصداء بعيدة غامضة لصورٍ أو تداعيات أو تجارب أو مشاعر أو أفكار كنت أعرفها أو أحدس بها قليلاً أو أكثر.

الشعر الذي «لا يشبه شيئاً» لا وجود له. أو هو موجود لكنه لا يُحرّك شيئاً.

ففي أعماق الوعي الباطن، لكلّ منّا «ذكريات» عن الشعر (عن الشعريّة) مهما ابتعد عنها ما نطالعه (في الشكل وفي المضمون) يظلّ لها في تلك الأدغال مرايا أو أُصول.

يكاد كل شيء ينوجد هناك، كأنْ سلفاً، في تلك الأدغال.

*

عندما أُشاهد عازفاً يعزف، حتى لو كان بالغ المهارة، أشعر بأن معاينتي له تُشاغب على انسجامي وموسيقاه.

الحضور الجسدي للعازف أو المغنّي لا يُحتمل إلاّ بمقدار ما يختفي في الموسيقى فننساه، أو يستحيل شاشة شفّافة لها، ولكنْ مجرّد شاشة بلا انفعالات إلّا تلك المكبوتة.

الموسيقى لا أنْ تُسمَع بالأذن وحدها، طبعاً، بل بطاقات الانخطاف للكيان كلّه. لأنها تعْبر السَمْع لتبلغ به إلى المُطْلَق.

*

الموسيقى المفضَّلة **تتجلّى**.

*

ارتبطت الموسيقى في خيال بعض الشعراء والفلاسفة بالكآبة. عازفون كثيرون، عندما تُكاشفهم بهذا الأمر، يندهشون: فلماذا الكآبة وكل توق الموسيقى هو إلى الفرح؟

الجواب لعلّه موجود في ظاهرة مماثلة هي نشوة الوصال. فالكآبة دائماً تعقبها. النزول إلى الرماد.

شلّال نور الموسيقى يجرفك ويحملك لتّتحد بالكون. لتتجاوزه. وبانتهاء الشلّال تسقط من عليائك وترتطم بالحضيض.

هذه المصالحة مع الحالة الملائكية، وأحياناً الإلهيّة، وأحياناً اللّا تُسمىّ، كآبتها في عبورها. كآبة ما بعد الحلم.

إذا لم يشعر بها العازف فلأنّه «محترف».

*

ما يُظَنّ «روحانيّاً» و«طوباويّاً» في كتابات الشعراء غالباً ما يكون، في الأصل، متأتّياً من قوّة جذورهم البدائيّة، من غابات «الحيوانيّة» الأولى.

الطفولة، في الشاعر، هي هذه. وشائج الفجر، قبل ملايين السنين. لولاها لما تسامى. الفوق، مرة أخرى، كالتحت.

والأثيري كالترابي، والناري الإلهيّ ينساب في ماء الغرائز.

*

لا شكّ في فضل روّاد «النهضة» (بل الأصحّ أن نقول

«النهضتين»: أواخر التاسع عشر إلى مطلع العشرين، ثم البضعة العقود الأولى من العشرين).

حفنة من المنوّرين الإصلاحيّين والموسوعيّين المعلّمين أعادت إلى ذهن العربي أن للكتابة دوراً آخر غير التفسير الديني. ولئن كان الرعيل الأول من النهضويين قد بالغ في الإنشائية والمقامية اللفظية كناصيف اليازجي، فإن الجيل اللاحق عاد ليصل بعض الشيء ما بين الكتابة والحياة، حتى دخل جبران خليل جبران إلى الميدان بتجربته الحديثة. ولعب الأدباء المصريون كالمازني وهيكل وطه حسين دوراً في اتجاه التنوير والعَصْرنة، فيما كان لبنانيو مصر قد فعلوا فعلهم التقدّمي عبر الصحافة التي أسّسوها هناك.

هذا الكلام، المكرّر، لنؤكد اعتقادنا أن للنهضويين أهميّة وقيمة لا يستطيع إنكارهما أحد، شرط أن توضعا في إطارهما الصحيح بدون تضخيم وبدون تعميم. فهناك نهضويّون ونهضويّون. بينهم من «ألّف» وبينهم من نقل واقتبس وترجم. وبينهم من ابتكر و«أسّس» (على لغة اليوم البشعة) وبينهم من بَحَث واستقصى وجمّع ودوَّن. ومن باب السذاجة مقارنة المعجميّين والموسوعيّين من هؤلاء، كاليازجيين والبساتنة، بمؤلفي العقود اللاحقة، وخصوصاً منذ أربعينات القرن العشرين، بعدما أخذ مفهوم التأليف

الشعري والروائي، كذلك مفهوم المقالة والبحث والنقد، يتغّيران تغّيراً جذرياً.

الغُرى، لمن هَوى البحث عن روابط، بين أولئك الروّاد وأدباء الخمسينات فما بعد، موجودة. موجودة نظريّاً على كل حال، ولو لم يُرِدْها ولا لَمَسها البعض منا بحسّه الواعي. أو حتى لو لم يكن مديناً لأحد من النهضويين بشيء «على صعيد شخصي» مباشر. الغُرى موجودة في التواصُل العام. وهذا يكفي. والقول، مثلاً، إننا نحن اليوم ما كنا لنكون لولا جبران وقَبْله لغة إبراهيم اليازجي في الكتاب المقدّس، هو، من حيث المبدأ والنظريّة، صحيح. فهؤلاء هم الذين تقدّموا حاملين المشاعل الأولى وهم الذين بدأوا، من المهجر الأميركي خصوصاً مع جبران ونعيمة، بكتابة «لغة جديدة».

من يُنكر ذلك وأكثر منه؟ لا أحد. ولكننا نعتقد أن الأدب العربي سار منذ الأربعينات والخمسينات على خط أكثر إيغالاً وجديّة في مفهوم «التأليف». وما تحقّق في العقود الأخيرة من قصائد وقصص ومقالات ودراسات يستوجب، لاختلافه عن السابق ولأهمّيته الذاتية معاً، أن يتوقّف عنده نقدٌ ما توقّفاً هادئاً مسؤولاً باحثاً مكتشفاً مقوّماً وجالياً الحقائق.

منذ مئة عام وأدبنا يحاول الخروج من هدأة الموت إلى عنف الحياة. لقد مشى خطى عديدة. وما زال معظم النقد العربي يردّد بعضه عن بعض أن «عصر النهضة» كان هو «العصر الذهبي» على هذا الصعيد وأنّ ما بعده مقصّر عنه.

نحن نعتقد غير ذلك: «التأليف» الذي تَحَقّق في العقود الأخيرة تخطّى تأليف «النهضة» وشقّ دروباً لم يعهدها الأقدمون ولا النهضويّون.

وإذا كان ما ندّعيه صحيحاً يكون هو نفسه تحيّة لروّاد النهضة الذين لم يزعموا يوماً أنهم أقفلوا باب «الاجتهاد»، بل بالعكس. وهل من الضروري أن ننتظر حتىّ يُحّول لنا التاريخ أدب نصف القرن الأخير «عصر نهضة» بدوره، لكي ننظر اليه ونراه على حقيقته وحقّه، ونحوّله، كما حوّلنا الذي قَبْله، الى صنم لا نرى خلاله ولا نرى بَعده؟.

*

ثمّة أدباء، شأنهم في ذلك شأن سائر الناس، لا يثير فيك تغنيجهم لأنفسهم في كتاباتهم إلّا الرغبة في صفعهم.

البعض لا يناسبه غير التقشّف، والبعض يلزمه أكثر ليغدو قابلاً للهضم: يلزمه أن يعنّف نفسه ويميتها، أو أن يسترها ولا يتحدّث عنها.

هناك نرجسيّات لا معـنى لها غير امتحانها رحابة صدرك.

*

أكتبُ للذاكرة أيضاً، ولكنْ لذاكرة باطنة تحت أَديم الشفاه.

هذا ما يبدو شعار شعراء اللاموزون على البحور المألوفة.

وبصفتي أحد هؤلاء، ليُسمح لي بالقول إن الدعوى هذه لا تدّعي إلغاء الشعر القابل للحفظ بسهولة وللترداد والغناء السيّارين. فللذاكرة طبقات. وكلّ طبقاتها في حاجة إلى فريسة أو قنّاص. ولا يحلّ غَرَض محلّ غَرض.

وطبقات الذاكرة تتناقل. وما كان في أسفل يعلو، وما كان على السطح قد يتبخّر أو قد يرسب في كمون.

والغاية قد تظلّ قصيدةً تنام في الباطن وتقوم على الشفاه في حركة دائمة الاغتذاء من تجدّد اكتشافها.

*

البراءة الطفليّة المعتَبَرة ميزة في الشعر هي، في الواقع، نقيض المفهوم السائد لها.

المفهوم السائد، موجزاً، هو الملائكيّة، طهارة بيضاء تحملنا

مَشاهدها النظيفة العفيفة على انعصار القلب، على الخجل بسنّ رشدنا، ملائكيّة ساذجة إنْ حَكَتْ، غير مؤذية إنْ لعبتْ، لا أثر فيها لفساد الكبار.

وما هو الواقع؟ الواقع هو أن الطفولة هي عهد البراءة بالفعل، ولكنها البراءة من قوانين عالم الرشد والمسؤولية، لا «البراءة الأخلاقية» في المعنى التقليدي. براءة الطفل هي وَضْعُ مَنْ يرتكب الانحراف قبل العلم بأنه انحراف، وليست براءة رافض الانحراف (أو الشر، أو الفساد، أو اللذّة المجانيّة إلخ...).

موقف الطفل من اللذّة ـ وهذا ما لم يعد سرّاً منذ كَشَفَهُ فرويد ـ هو موقف مَنْ يمارسها، لِذاتها، من دون نتائجها الاجتماعية والأخلاقية (كالتناسل) وأحياناً مع تعمُّد إحداث الإيذاء. ولعلّ الطفل في هذا المجال أكثر حرّية من أكثر الراشدين حرّية، ولو افتقر إلى الشعور بمدى أهمّية هذه الحرّية. والأرجح بفضل ذلك.

خطأ جسيم يرتكبه الكثيرون عندما يتّخذون الطفولة رمزاً لما ليس فيها.

طبعاً هناك طفولة وطفولة. قل لي أيّ طفل كنتَ أَقُلْ لك أيّ طفولة في أدبك. ولكن المهم ألّا نَقْصر مفهومنا للطفولة

في الأدب على تلك التي تتعمّد الإيحاء أنها «بريئة».
فالطفولة الحقيقيّة المستمرّة هي التي تنسى ذاتها.

*

تدامُج حالتَي الحلم والواقع، المتناقضتين ظاهراً، في نوع من الواقع المطلق، من السموّ واقع، لن يحصل دوماً في غد، كما يتنبّأ بروتون. بل لعله من الأمور التي تحصل في اللحظة، وتحصل منذ البداية، منذ بداية الحلم والواقع.

تنتمي هذه الحالة إلى حقل الممكن الإنساني، وهو لا يحتاج إلى وعد ليصير، لأنه صائر كل يوم، في خلال لحظات.

قد يحلم الشاعر بإدامة هذا التدامج، بحلول عهد تصبح فيه الديمومة هي القاعدة. حسناً، حبّذا. ولكن ثمة من يعيش هذه الحالة منذ ولادته.

كذلك التدامج بين الليل والنهار، والحلم واليقظة، والجنون والعقل...

ما نعِدُ أنفسنا به هو غالباً عزاء.

إلّا هذا. فهو فينا ما بين كُمونٍ وإشراق.

*

حين «يُقرّقون» على أبلغ ما فيك، اعتقاداً منهم أنه مدعاة للسخرية: لا يخلو عهد أدبيّ من هذا الصنف الغبيّ من الظرفاء.

*

مَنْ لا يُخفي سرّاً ينهشه لا يستطيع أن يُعلن شيئاً.

*

- هل حقّاً مرغوب للكتابة أن تكون عفويّة؟

- حَسَب عفويّة مَنْ. التافه الأحمق عفويّته تافهة حمقاء. الفائش عفويّته فوّاشة. المرغوبة حقّاً عفويّة المنطوين على شيء.

- تقصد العميقين؟

- أقصد الذين متى قالوا لا تنحصر ظلال كلماتهم بحدود حروفها. العفويّة أَبْلَغ في أفواه الباطنيّين.

*

طفولة ماضية في العمر شباباً وكهولة وشيخوخة، مستمرّة لا تحترف ذاتها فتُمسي قناع طفولة. طفولة مَنْ مَهْما فعل

ينضح بطفولته وتنضح هي به، وَحْلاً وزوفى، من دون افتعال السذاجة الطفليّة.

المتنبّي أكثر طفولة من جميع أبنائه، وبودلير أكثر طفولة من لِويس كارول وبطلته أَليس.

*

... والذين يجهدون لإظهار أنفسهم ضحايا وشهداء، ضحايا مجتمعاتهم وطوائفهم ولغاتهم وشهداء نسائهم وقضاياهم، هم في الغالب جالسون في إطار من الاستشهاد اصطنعوه اصطناعاً، وما أسهل الاصطناع في عالم استهلاكيّ قائم على البيع وما من وقت عند أحد فيه لتفحُّص مواقف الآخرين وسبْر غورهم. فمن يُقدّم ذاته بصورةٍ من الصور، يؤخذ كما يتقدّم.

وما أسهله تزويراً.

هناك ضحايا وشهداء، وأكثر مما نعرف، ولكنْ غيرُ مَن نظنّ وغير من يُسوّقون أنفسهم تحت هذا الملصَق.

أكثر الضحايا والشهداء بين الأدباء هُم أولئك الذين لا يفتحون فمهم عن هذا الموضوع. إذا كتبوا كتبوا ليساعدوا ليحرّضوا ليعطوا هدية أو يرموا قنبلة أو يدسّوا سماً أو

يفتحوا جداراً أو يموتوا ليعيش من يقرأ. إذا كتبوا حَرّكوا أشعلوا قلباً أرعشوا خدَّروا دمَّروا قهقهوا في وجوه الآلهة والأقزام. كتبوا ليزيدوا حجم الإنسان، حجم خياله وتمرّده وتوقه وحبّه وحرّيته وليزيدوه جمالاً، لا ليقولوا كلّ لحظة إنهم ضحايا وشهداء.

وهؤلاء يكونون حقّاً ضحايا عالمهم وشهداءه كلّ لحظة ولكنهم يرفضون الوقوف عند حائط من هذا النوع ليكتبوا عليه شعارات استدرار الشفقة.

وفي النهاية من يستطيع زيادة حجم الإنسان هو، ولو قُتل كلّ يوم، أقلّ تعاسةً وحاجة إلى المؤاساة من جميع البشر.

*

بين كون الشعر «من اللغة» كما يقول بروتون وكونه نازعاً إلى أن يصير، كما يقول هيغل، «لغة كونيّة»، تُلْعَب، على قَدْر اللاعب، لعبة الجدليّة المحيِّرة والمفاجئة ما بين الارتباط والانعتاق: إرتباط الشعر بلغته الأم، وانعتاقه من حدودها نحو كل إنسان في أيّ لغة ـ وربما نحو ما هو أبعد من الإنسان، ما هو غير بَشَريّ.

في ضوء شعور كهذا نقلتُ ما نقلتُه في الماضي من قصائد

فرنسية حديثة إلى العربيّة غير عابىء بالتغيّر الذي سيصيبها من الترجمة.

«كلّ ترجمة هي خائنة» يقول المَثَل اللاتيني. حسناً. ولكن الخيانة هنا هي للإيقاع الأصلي في اللغة الأم، وأمّا «اللغة الكونيّة» فتبقى. وليس مثْل الترجمة ما يمتحن مداها، وأحياناً، في ظروف نادرة، ما يضيف إلى تلك اللغة أبعاد التغريب، ولو ظَلّ شيء ناقصاً، كما في كل «نَقْل».

وفي التجديد بفضل «الخيانة» ما يُسكت ضمير الأمانة...

*

عدم إلفة كثير من المثقّفين للعفويّة ـ ولو كانت عفويّة التراكم ـ يجعلهم يشتبهون، عادة، بنشوء حالة تواصُل بين كاتبٍ والجمهور. مع أن التواصل هو القاعدة، شرط أن لا يخون الكاتب ذاته للوصول إلى القارىء. هذا الاشتباه أداة نقديّة جيّدة، على أن تكون في يد تُحْسن التمييز بين أصالة وزيف، وتعرف نوعيّة التواصل عندما يحصل، ومَنْ من الفريقين «وصل» إلى الآخر بشروطه: القارىء أم الكاتب.

*

بُغْضٌ يعطينا دو ساد، جزءاً من بودلير، روايات سيلين، شيئاً

من أراغون، بعض نيتشه... وبُغْضٌ يعطينا ساليري، الذي لم تَزِدْه غيرته من موزار إلّا عجزاً وفشلاً.

البغْض ليس دوماً سبباً للعقم، لكنّ إلهامه يتوقّف على مَن تُبغض، وقبلاً على مَن أنت.

ولا شكّ في الحَسَد مصدراً من مصادر الكتابة.

ولكنْ بالشرط ذاته لا يتغيّر: إتحاد الكاتب بصدقه جامحاً فوق خوفه على صورته من الاهتزاز إن هو مضى في الصدق إلى تمامه. شرط أن يجاهر المعقّد بعقَده لا أن ينافق ضمن أربعة أزياح المربَّع المرسوم لصورته «المعنويّة».

تلك بشاعة مقنَّعة تكبت قارئها من دون أن يعرف السبب. والسبب هو ذاته لا يتغيّر: غياب مِسّ الحقيقة المحرِّرة.

في الشعر (في الأدب كلّه) الجمال نصفان: ذاته والحقيقة.

*

ما يجعل مواقفهم مشبوهة هو أنهم لا يتماهون مع شخصياتهم الحقيقيّة. لا يأخذون على عاتقهم. لكي أصدّقك وأتأثر، عليك أولاً أن لا تخجل إما بقبول ذاتك كما هي والمضيّ بها حتى أقاصيها، وإما الاعتراف بمكنوناتها ولو في محاولة لمكافحتها.

هذا هو الصدق الذي ينقص كتاباتنا. في أيّ رواية يتعرّى الكاتب العربي حتى إسقاط أمنع قلاع الخبث والوجل في نفس قارئه؟ في أي قصيدة يبلغ الشاعر من الصدق حدّ اختراق كل مناعتنا ـ الموروثة والمكتسبة ـ ضد الصدق؟

والناقد؟ والمسرحي؟ والصحافي؟ والسينمائي؟

ومع البقاء في إطار الإخلاص للصدق، بدون «استعمال» الصدق سلاحاً للصدم السطحي والبَهْر الاستعراضي. ليس عن هذا الصدق أتكلم بل عن ذاك، الزاهد إلّا بمثله وأبلغ منه، اليائس، الباحث، رغم يأسه أو هَوَسه بذاته، عن مَخْرج للإنسان مما يُشّعه، عن أرض أكثر رحمة.

صدْق لا يُنَشّف قارئه، بل يُحْييه، ولا يكشف له الفراغ ليدفنه بالفراغ بل ليملأه وإياه بما في اللحظات من جِنّ وسَحَرة وحيوانات فاتنة وجداول وأشجار رؤوفة وشلّالات تتفجّر من غمام اللّذة وخِلْستها وزوبعتها وزهرتها وجمرتها وصخرتها السرّية الخالدة.

*

هناك تقطير المعاني الجيّاشة، وهناك تقطير المعاني القليلة، البخيلة.

غموض الأولى يخترق مجراه، يتدفّق فوق الأُطُر.

غموض الثانية شحُّ نور، فقرُ دم، وفيه، مع هذا، جاذبٌ معتصِرٌ للقلب، كألوان الخريف في بعض البلدان.

*

أنا مع الكاتب في «خطأه».

خصوصاً في «خطأه».

*

أَنْ «تبدو» عابثاً في الكتابة هو غير أَن تَعْبث فعلاً. السلوى بالكتابة ليست غاية الكتابة. إنّها من أردأ ما يمكن أن يحصل إن لم تكن **لعباً مصيريّاً**.

أَنْ «تبدو» عابثاً هو مظهر خادع يُخفي إمّا جدّية وإمّا تمرّداً. يُخفي تجربة «أساسيّة».

كذلك السخرية. وكتابة الرغبة والشَبَق. عندما يتسلّى «الكاتب» مَحْضَ تسلية يلعب بشطرنج الحروف. لا يبلغ مشارف الحياة ولا حدود الموت. لا يعرف روح الكلمة ولا الكلمة تعرف روحه لأن دمهما لم يتخالط.

هذه إحدى نقاط الفراق بين الأدبين التقليديّ والحديث.

الأدب التقليدي بلاستيك قد يكون ممتازاً ومضمونٌ في

الغالب ملفّق. في روايته الأشخاص زائفون وفي مقالته الخطاب «سماعي» برّاني وفي شعره غياب للعنصر الجوهري: الشيء الأكثر من «فن الكلام» وبراعة الموسيقى، الشيء «الأكثر» من الأدب.

الأدب التقليدي يريد أن يُظهر لي تفوّقه عليَّ أنا القارىء.

يريد أن يسحقني بـ «كماله» الاتفاقي، بـ«إعجازه»، بحجارته المرمريّة وتماثيله المخيفة وجيوش حذاقاته ومواهبه وعلومه وأنظمته الجرّارة. يسحقني، أنا القارىء المسكين الجاهل، بعضلات مصارعته التي تتغلّب على كلّ الصعوبات التي تصطنعها هي، وتنجح في كل الامتحانات... البيانيّة والبديعيّة والإيقاعيّة، فأخرج من مطالعته مبهوراً كأرنبٍ مذعور وأكثر انهزاماً وانعدام ثقة مما كنت قبل أن ألج هذه المغامرة.

وأرعبُ ما في الأدب التقليدي روائعه.

*

الكلمات بديلاً من الرأس، فيستريح قليلاً من بعض أشباح الخيال، يدفنها بين الحروف، فإذا هي كالجذور الوحشيّة، لا تبدأ حياتها الحقّة إلّا بعد أن توغل عميقاً تحت التراب.

لا النهار نهار
ولا اللّيل ليل

مِن شدّة الظلّ صرتُ شمساً خضراء.

*

الذات، هذه الوديعة، لا يُسعدها، في بعض المصايين بضربة القَمَر، سوى أن تضيع،

سوى أَن تُهْدَر،

وأن تُذرّى بدون أدنى رفْق، لا لشيء إلّا لكي تتسلّى.

*

وهل تعرف، أنت، تسليةً أجمل، أَيّها المنافق؟

*

ليس كلّ إشراق مكبّراً لصاحبه. كم من إشراقةٍ لم تُسلّط ضوءها إلّا على بؤسي.

*

لماذا تَهْرب؟ أخَوف أَن أقبض على المخفيّ منك؟ وإذا، ما المانع؟ أخَوف أن لا يبقى فيكَ شيء بَعْدَه؟

ليكنْ. تموت مع انكشاف خفائك، ربما، ولكنْ حياتُكَ الجديدة سيكون خفاؤها أكبر.

لأنكَّ هذا السرّ، ولا شيء سواه مهما أَظْهَرْتَهُ.

*

لمَ أُقاوم والاستسلامُ أسرع طريق إلى النجدة؟

*

لا أدافع عن الماضي بل عن أمّي.

*

يريدني الحظّ يائساً كي يعطيني الفرج. راكعاً ليقيمني. أو كافراً به لكي يسترضيني فأعود إليه فيعود إلى تكفيري به...

سواء كنت مؤمناً أو ملحداً، قويّاً أو ضعيفاً، هذا هو الحظّ، القَدَر، الصدْفة.

مسحوباً أيضاً على العلاقات البشريّة (حبّ، رغبة، سلطة، إعجاب، صداقة، الخ...).

لا تستقيم كفّتا الميزان إلّا لحظةً واحدة، لحظةً ترفّ رفيف هَدْب بوغتَ بنورٍ أصعق من أن يحتمله البصر، وفوراً تعود بعدها إحدى الكفتين إلى النزول تحت الأُخرى.

المحتمِل أن يُحبّ الآخر أكثر مما يحبه الآخر هو المحبّ الحقيقي، الذي صمّم أن يتجاوز قانون التكافؤ ولعبة القوى، ومضى إلى أُفُق العطاء الذي لا يَنْظُر وراءه ليحاسب بل ليزداد عطاء.

*

خيول القَدَر تتصارع على صدري ولا ينالني من خيرها غير ما يجوّعني إلى الخير ومن شرّها غير ما يجوّع الشرّ إلى المزيد منّي.

*

بعد ساعات النفاق والمساومة، أعود إلى قاعدتي طائشاً قذراً كمجنون **فَقَدَ جنونه**...

*

في النهار ظلامٌ لا يشعر به غير الذين حرّرهم الرعب من خداع التمييز بين النور والظلام.

*

أُقدّر ثمار الحياة الداخليّة (غنى النفس الداخلي) حتى عندما تكون أزهارَ الكبت. وعندما ينتفي الحرمان أو الكبت وتظلّ الحياة الداخلية قويّة، فإن ذلك يقارب حالة الإنسان الأعلى.

شرط ألا تَنْتج من الإنكسار أو الحسد بل من الحرّية، وحيث الوحدة أشدّ رعباً في شسوع صفائها.

*

... ولكنْ هل من امتلاء حقّاً لا يكون نتيجة نقص في شيء آخر، نتيجة حرمان؟

كلّما وصلتُ إلى حقيقة مُرّة سارعتُ إلى المثاليّات الغنائيّة لتغطيتها!

*

قليلة هي صفاتي «المستقيمة». الناس تنام في الليل وتعمل في النهار وأنا أنام في النهار وأعيش في الليل. يبدأ الإنسان

بالحبّ وينتهي بالطموح وأنا بدأت بالطموح وسرعان ما قطعتُه لأكمل والأرجح لأنهي بالحبّ. الناس تبدأ شابة وتهرم وأنا بدأتُ هرماً وأصبحتُ شاباً.

بدأتُ بالموت ثم اتجهتُ نحو الحياة.

من الماضي إلى ذاكرته.

وما بينهما أشلاء.

*

لا يخلو من المناورة إلّا مَن إذا تطلّع في المرآة لم يعد يرى صورته.

*

آخر مرّة كنتُ فيها بريئاً كان عمري سبع سنين. وعند التفكير: أقلّ. ربما سنتان. بعد ذلك أصبحتُ مدركاً لما أتسبّب به من عقاب لشقيقي وشقيقتي ومن عذاب لوالديّ. ثم أخطائي المعيبة في روضة المدرسة. ثم السبع، السنون السبع.

الرقم ٧ هو رقم الحظّ عادةً، وفي حياتي كان رقم الخسارة، مفتتحاً بذلك سيرة من «الآيات المعكوسة». ومنذ ذلك

الحين لم يعد يفارقني الشعور، بل تَفَاقَمَ مع الأيام، بأني أفعل عكس ما يجب أن أفعل.

آخر مرّة كنتُ فيها بريئاً ما زلت أذكرها. كان ذلك قبل أن أولد.

*

كلّ مرّة أعود فيها إلى البيت، أشعر كأنّهم كانوا في الخارج قد استدرجوني إلى فخّ.

*

يظلّ يسألني:

ـ لماذا تعيش في الليل؟

أيّ ليل؟ أليس النهار أيضاً ليلاً مصبوغاً بدهان الشمس، وفيه، وحده، الظلام الظالم؟

الليل الأسود أرحم لأنه مهجور، وقد أَمسى أشبه بالأرض يوم كانت ملعباً للنفْس المُرْهَفَة.

*

أُفضّل شرود الإنسان على حضوره الكثيف. ومن المرأة

أُحبّ نَوْمة «شخصيّتها» في غابة الحلم أو أدغال اللاوعي.

فما إن يفيقوا حتّى أنام عنهم...

*

وحيدٌ... أكثر امتلاءً وهدوءاً واستعداداً من أرض خصبة قبل اكتشافهم إياها.

*

قبيل أواخر الصيف كان الأهل ينتزعونني وأشقّائي وشقيقاتي من القرية، لأن العطلة المدرسيّة انتهت.

ويعودون بنا إلى بيروت.

ولدتُ في بيروت. نشأتُ فيها. عشتُ في معظم أنحائها. شربتُها مُرّة وحلوة.

لكنّي لم أغادرها يوماً اقتلاعاً ولا عدتُ إليها شَغَفاً.

لم أُقتلع إلّا من مكانين: ضيعتي، قيتولي، كل آخر صيف. ومنذ ذلك الحين وأنا أكره أيلول.

وباريس، القرية الثانية التي لم أغادرها إلّا بشعور مَنْ يُطْرَد من الجنّة.

المكانان كلاهما، الملعبان الأصغر والأكبر، النقيضان ـ فواحد منتهى البساطة وآخر منتهى العظمة والتبرّج ـ كلاهما ما كان يجب تَرْكُهُما.

لأنّهما الأقرب تذكيراً بحضن الأم إنْ لم يكن بأحشائها؟

ربّما. القرية الصغرى خصوصاً. أمّا باريس فلأنّها أجمل انتقام من الذات بعد تعذُّر خَلاصها.

الانتقام بشراهةِ انهدارٍ تدعوك إليه دنيا تقول لك إنها تَفْهمك، ولا تخونك ظواهرها ولا بواطنها.

*

أيمكن أن تكون نقمتي لا على بؤس عصري بل، بالعكس، على صوَر معيّنة لسعادته!؟

طريقته، مثلاً، في الاستمتاع بالوقت، في التواصل الإنساني، في التعبير...

أيكون هو سعيداً وأنا أحسبه تاعساً؟

أيكون غضبي حسداً وقهري بُغضاً لأني أجد منظر سعادة الناس بشعاً؟

هكذا تساءلت وأنا أرى في فيلم أميركي مشهدَ فطور الصباح لأبوين وأولادهما، والسباحة في بحر من الهناء

والتناغم، وفتيان الجيل الجديد يتكلّمون لغتهم السخيفة ويأكلون محتويات أكياسهم وبلاستيكهم.

أيكون كل هذا حسداً وبغضاً؟

أليس بالأحرى من نوع اليأس الذي يصيبك عندما تغدو بينك وبين الآخرين مسافةٌ أكبر من أَن تُقْطَع، فتجلس في مقعدٍ يختفي معك، أو تسير في صحرائك؟

*

هل نحلم إلّا بما كان لدينا ثمّ أضعناه؟

*

بقولهم لكَ: «أَنتَ اخترت، وبملء حرّيتك، فما عليك سوى تحمّل المسؤولية»، أَسمعهم، في محض ضمائرهم، يقولون: «أنت نفذّتَ، لأنه ما كان لك خيار».

الحرّية التي يربطونكَ بها، هل كانت يوماً أكثر من تنفيذ قَدَر؟

حتى لا أقول: من تنفيذ عقوبة، أو السقوط في سلسلة من الاستدراجات؟

والمنطق الذي يحمّلونك تبعاً له مسؤوليّة فعلك، أليس منطقاً فرّيسيّاً؟

الحقيقة هي أنّه، بما أنّك لم تختر بملء حرّية كما يزعمون، فإنك لست مسؤولاً.

من المسؤول؟

إمّا الآلهة وإمّا لا أحد.

والذين يكلّمونك، إنما «يعيّرونك» بالحرّية ـ ولو موهومة ـ وكأنها مَعْصية.

ففي الحقيقة نستطيع أن نسأل جدّياً:

من لا يخاف الحرّية؟

*

ولماذا هذا الإلحاح على الاختيار وحرّية الاختيار؟ أليس الأفضل أن تمشي على عمى القلب ونشوة الصبا الأقوى من الحياة؟

الاختيار هو الاسم الآخر للحرمان.

*

حتى لو كان قبيحاً، الكهل الذي يُقرّع نفسه لخيانته طفولته يغدو، في لحظة، ملاكاً ساقطاً يستعيد ذكريات لا يَعْرفها.

*

نصْفُ قوّتك، وأحياناً كلُّها، يذهب إلى الأبد عندما تدرك

للمرّة الأولى أنّكَ كنت «**أنتَ السبب**».

*

بعدما أصبحتُ مهتمّاً بأن لا أَظلم أحداً وبات أحد هواجسي مَحْو الاستغلال تماماً من تصرّفاتي، أَيقنتُ أنّي لن «أَتقدّم» بعد اليوم.

*

أَتَشَبّثُ بأيّ وجهٍ جميل كي لا أغرق في اليأس.

الوجه ـ وجه امرأة خصوصاً، أو طفل **يَفْهَم** ـ يساعدك على «بَلْف» رأسك، على إعادة وجهك من الأعماق إلى لَهْو «الحفلة».

*

كما هو مؤثّر مشهد التعلّق في العيون

قاتلٌ هو

عندما تَنْقل العيون ولاءها منكَ إلى غيرك مُعرّيةً إيّاك من أقوى قوّة في الحياة هي **أن تتعلّق بكَ الحياة**.

*

هل هو الشرّ يعاقب إنساناً بالموت عندما يصمّم هذا على تغيير نهج حياته من الرذيلة إلى الفضيلة أو من العدوانية إلى المحبّة... أم هو الشعور الضمني بقرب الموت، يحمل الإنسان على «الصلاح»؟

صرت أُعجب بشرّير مات على دين الشر. ذلك يعطيني أملاً في كون الموت ليس دوماً قصاصاً للضحايا.

*

لم تعلّمني عيناي بل نفحات الحدْس.

*

لو أَرتكبُ جريمة قتل حقيقيّة

جريمة واحدة!

أقتلُ شخصاً جمّعتُ عليه كلّ هواجس حقدي وخوفي

بيديّ

شافياً غَلَياني

بأَسناني

أَقْتلُ شخصاً قَتَلَني
ليس لأنّه قَتَلني بل لأنّي أكرهه
فكثيرون قَتَلُوني ولم أكرههم
لا قبل أن يقتلوني ولا بعده
لكنَّ هذا هو غيرُهم
إنه خَصْم كُتُبي وطفولتي وكهولتي.
أقتلُ معنىً في شخص
أقتلُ معنى زمناً تاريخاً
أقتله أَمام يديّ،
أَلاَ أَبْلُغُ حينئذٍ السماء
وراء جبيني؟
اللعنة على القتل! ولكنّ هذا قَتْلٌ حيّ!
أقصد أنه يُحيي
وأنه فَتْح القفص لعصفورٍ مقهور
حتّى يطير ويصير ملاكاً.
ولا أطلب موافقة ولا مغفرة

أريد أن تخرج هذه الجثة من خيالي!...

*

حبّه الخاطىء كان عاصفة سوداء مخروقة بشعاع النقاوة. حبٌّ مدمِّر نقيّ. حبٌّ قاتل معطاء. حب هدّام لا يكره شيئاً أكثر من الظلم والحقارة.

وبعد العمر، حين رأى الرجل أن الأمر لم يكن يستحقّ ذاك الجنون، ندم جدّاً.

وما كان يجب أن يندم. فأنتَ تُحبّ بقدْر حاجتك أنت إلى الحبّ. وإذا لم يكن المحبوب يستحقّ كل هذا القَدْر فالذنب ليس ذنبه بل ذنبك. إلّا أن ما تحسبه ذنبك، هنا، هو أَعظم ما فيك.

*

مرحى بالخطر، طاردِ الضمير!...

*

رأيي فيكِ ذكرايَ عنكِ، وحضورُكِ شَغَبٌ حتّى يصبح بدوره ذكرى.

إلّا حين يكون حضوركِ ظلّاً للذكرى، أو ذكرى سابقة

لذاتها، أو صَعْقاً يمحو ما قَبْلَه فتختلط القوانين ويصبح الركون إلى ذكراكِ محطةً للانتقال إلى ارتماء جديد في خضمّ جنونك.

*

الليلة دع فراغَكَ يغمرك. آنَ تغوص فيه إلى النهاية، تَرَدّكَ النهاية مشفوعاً بفجر جديد.

*

ليس الوجود ما يدمّرك بل الفراغ. فهو يدفعك، مع أنه غير موجود، إلى الاحتراق هرباً من مواجهته، استعاذةً من مرأى هذا الذي لا يُواجَه.

مع أنّه غير موجود.

ما يَقتلكَ غير موجود.

لو فكّرتَ مرّةً أَن الفراغ الذي يُجنّنك هروباً منه، وجهُهُ اللاموجود جميل، وروحه ألطف من الوجود، وأَعمق من العمق، في الحقيقة.

*

إذا كنتَ تفتّش عن الأبرياء والصادقين، وسائر الذين لا

«يُمثّلون»، فما عليك إلّا بالحيوانات. إنها أكثر من الأطفال براءة.

ولكنّك، رغم محبّتك للحيوانات، لا تزال تصرّ على العلاقات البشريّة. ألانّك تهوى أن تتعذّب؟ بل لتوغل في تجربة الشرّ، هذا الامتياز البشريّ الأكبر.

*

«محبّتك» للحيوانات؟ الأصحّ: حنانك عليها. خوفك. لا يَخْلَع قلبك أكثر من مشهد غزالة تنظر وراءها مرتعبة وهي تركض. أو مشهد عَينَي كلب ضربه صاحبه لذَنْبٍ لم يرتكبه. أو نظرات بَقَرة تُساق إلى الذبح.

خوفك عليها.

واكتشافك أنها، كلّما نظر إليها إنسان، رأى الخوف في عينيها. فلا يوحي لها الإنسان إلّا الخوف.

والحياة لا تَعِدُها إلاّ بالموت.

هذه الحيوانات أنت لا «تعطف» عليها من فوق، بل تتشارك وإيّاها الخوف ذاته.

غير أنها أفضل منك في ألمِها، فهي لا تتبجّح ولا تعتلي منبراً، بل تتوجّع بكرامة وتموت كالشهداء البُكم.

لكنّك تتمسّك بإدمان العلاقات البشريّة. أَلأنّك تجد، بين التيه والتيه، نفوساً هي، في براءتها المستعدّة للوقوع ضحيّةً أكثر منك، ذلك الشراب الذي يخدّر رعبك؟

*

هذا الخواء هو هواء لهاثك. اجْمدْ. حتى تفاهتك، حين تَجْمد، ستشبه الحصافة.

*

لستَ عميقاً على الدوام بل أنت أحياناً مهجوس. حينئذٍ لا تغوص على الأشياء بل هي التي تسكنك فتغرقُ فيها.

العميق يستوعبها، كالبحيرة. أنت، هي تفترسك فتُظهرك بقاياك الشبحيّة مستغرقاً في الرؤيا وما أنت سوى فريسة نَهَشَتْها ذئاب الهواجس.

عُمْقُ الهواجس جحيم. العمق الآخر، السليم، لا تفضحه عيناه. إنه مَلْجأٌ مِن العواصف. وأمّا عواصفه هو فلا أصوات لها.

وحين تخلد إلى العمق البعيد عن الهواجس، تشعر أوصالك بمعنى السيادة.

إلى أن يعود أوان افتراسك في شكل أو آخر.

*

قَولُ البَشَريّ فينا ليس شيئاً.

إلّا حين يعزّ البشريّ وقوله القول النافذ.

ما يهمّ هو قول اللَّهب الأَبعد فينا. النَفَس الكأنّه غير بَشَريّ، ينطلق من وراء ما نعرف ونُحسّ، غير منتمٍ إلى تصنيفاتنا.

شيء يحنّ كلُّ كاتب إلى التعبير عنه ولو مرّة.

شيء موجود ههنا في الصدر، أصغر من كل هذه الكتب والأفلام، أكبر من كل هذه الكلمات والصور والنظرات والأصوات.

أقوى من أن تهزمه العاصفة الأخيرة.

*

فاتني صوتكِ بسبب لحظة. انفتحتْ أمام روحي أدراج الضياع كبحارٍ من الضباب المفترس.

لا نتعلّم القلق مثلما نتعلّم الموت. لا نستسلم إلّا لموتٍ واحد، وشرْط ألف شرْط.

بضعة حروف صغيرة، نبرة، إحناءة، وينكسر الأمان.

لا نتعلّم الحياة. نهْرُها نظامُنا ولا ننتمي إليه. لا نغلق ما يجب أن يُغْلَق عندما نحضن لحظةً حبيبة.

العواصف مختبئة في جيوبنا!

*

هل أنا متواطىء، إذا رضيتُ بأن أكون عضواً في مجتمع متواطىء؟ هل أنا جبان، إذا رضيت بأن أسكت مع الخائفين؟

يعذّب السؤال صاحبه. يعذّب أصحابه، يحلو لي أن أظنّ. أن أظنهم كثيرين. لا لجمال الكثرة بل لتوزيع الذنْب على أكثر من ضمير.

والجواب معروف.

*

مرّة قلت إن أول عهدي بالكتابة كان علاقة مع الفراغ. فقد حاولت أن أكتب فلم أكتب شيئاً. لم أشعر بشيء في

داخلي يريد أن يخرج. قمت وجلست أمام مرآة كبيرة أحدّق إلى صورتي علّني، إذا وصفت «مادتي» على الأقلّ، أتوصّل إلى شيء من «الروح».

لا أذكر كتبتُ في النهاية. وليس هذا هو المهمّ، بل الشعور الصلب بالفراغ الذي لم يفارقني لا وأنا أحاول التفرّس في داخل ذاتي ولا وأنا أحدّق إلى صورتي في المرآة.

عندما رويت ذلك جواباً عن سؤال، أعتقد أني استنتجت من التجربة درساً ضد الافتعال.

اليوم أرى كم كان استنتاجي سطحيّاً. الدرس غير ذلك. إنه الفراغ عينه، لا بَرّاته.

خطأي يومها أني حاولت إيجاد شيء آخر للكتابة عنه، أو انطلاقاً منه، غير هذا الفراغ الذي كان يسكنني.

وكلّما أنعمت النظر رأيت كم أنّ ما نحسبه ناهلاً من ينبوع الامتلاء هو في الغالب ابن الفراغ.

الفراغ الذي يعكس الأشياء ويُرسل أصواتها أو أصداءها.

الفراغ الذي يستقطب الحوادث والأحداث كما تستجلب الحَرْبةُ الصواعق.

الفراغ الذي «يشعر»، الذي «يشتاق»، الذي «يعيش» و«يفرح» و«يتألم». الفراغ الذي يمتلىء، أو يحسب أنه إلى امتلاء.

الفراغ الذي، كسرير البحر، يشهد ما فوق سطحه يَمدّ ويَجْزر، وهو دائم العمق...

*

سامحوني، كان يجب أن أحبّ كذبكم، كذبكنّ، فلا أعتقد فَضْحَهُ فضيلة.

لم أعرف أنْ أستحقّ أخطاءكم.

*

غياب الشمس يمنحني كلّ ليلة فرصة النظر، في صفاء الظلام، إلى بعض الأبراج والنجوم والكواكب، تارة أراها هائلة البعد لا نهائيّة، وطوراً أقرب كثيراً مما يُقال، وعلى مسافةِ شُبّاك.

يعروني أحياناً خوف من مشهد القبّة الصامتة كخطر محدق، المهولة كمجهول يراقبك، فأُرحّب بشروق الشمس تُعميني مفرجةً عنّي من خناق هذه المواجهة، التي مقدار ما يخالجني فيها شعور التهيّب، يتمكن منّي،

أكثر فأكثر، شعور القُربى. فما أراه «فوق» أكاد أراه في نفسي، والغربة التي أُحسّها وسط هذا الكون أقلّ من غربةٍ «تربطني» بسائر الناس.

*

إن كنتُ لا أعترف بك فليس لأنّي أكرهك بل لأني أرحمك.

*

«كلما أَحْبَبْتُهم وقعوا من القطار»؟
كلّما أحببتُهم **وقعتُ** من القطار.

*

لفظة الكسل المُعَسَّلَة.

*

ضروري أَتوقّف. مهما كان. أَنْ أضع يديّ في وجه هذا الدمار وأوقفه. تخريب هذه الحكاية جريمة. توقَّفْ أيّها المعتوه! مهما كان ما يجنّنك، تجاوَزْه! ألا تعرف أن تمشي؟ إمشِ! كن الآن في الغد! لن تربح بغير العبور. من يؤلمك ينتظر منك أن لا تبالي به ليحبك! تعال، إقفز!...

*

نوعان من الجَمال: واحد يُشعرني بالذنب وآخر يحرّرني من هذا الشعور. الأول بجَهْله المُشَهّي يُحرّك فيَّ الوحش، والآخر يُنيم ضميري لأني أغدو، أمام شياطينه، أنا البريء.

*

ولدتُ كما أصحو من النوم، وأَنا أُقاوِم.

*

لروحي جسدٌ آخر حيث تشاء الانتقال، جسد يعشق روحه بقَدْر ما الروح تعشق جسدها. جسد صافٍ من احتقار الفلسفة والدين له، وروح منذورة للحياة بشغف لا يخاف الموت.

*

... زمن لم يكن هناك ظهور ولا وجود، بل مجرّد طفولة مشرقة في ظلماتها، تائهة في إشراقاتها، مولودة إلى العالم كأنّها غير مولودة، لأن ما يشدّها، بعدُ، إلى نقاء اللاوجود هو أعمق مما يجذبها نحو هذه السلسلة من الاثباتات لعجزنا، التي نسمّيها الحياة...

زمن لم يكن هناك غير عذريّة أكثر طهارة من أيّ ألم

لاحق، عذريّة الممرّ ما بين ملجأ الأمّ وصقيع مَسْلَخ العالَم. الزمن ذاك...

*

لا تُصدّقه. إبتعدْ.

لا تصدّقها. إذهبْ.

لا تتأخرْ عند أحد. حرّر العلاقة.

الذي يُحبّكَ سيضجر منك إذا صدّقتَ دَعْوَتَهُ ولازَمْتَهُ.

سيُبغضك إذا أحببته.

أهربْ

أنظرْ إلى أعماق الإنسان أيّها العابر. إنه عابر مثلك. أهربْ.

أهربْ.

*

لعلّني كنت أريد في من أَحبَّني قوّةَ من استغلّني وفي مَن استغلّني أملْتُ أن أروّض البشاعة بالسماح.

لم أَخسر حُبَّ من أَحبَّني وجافيتُ، لكنَّ جحودي أَخَّرهُم وساديّتي جرَّحتْ قلوبهم. ولم يجعلني جحودُ من أعطيتُ، كارهاً، ولكنّه عطَّلني ومَرْمَرني.

فريقٌ أدار لي الأيسر فأدرتُ أيسري لفريق.

وكلٌّ يبحث عن قاتله.

*

غَسْلُ الخيبة الراهنة باحتمال خيبةٍ مُقْبلة.

*

وَجْهُ الشخص الذي يُطَمْئنك، فيه كلُّ صباحات ما قبل السقوط وما بَعْدَه، معاً.

*

«عندي الجنون الكافي للعيش على الحافة وليس عندي روح الدعابة الكافية لأحيا شريداً...».

*

صَرَعني الجمـال لا لأنّي ضعيف بل لأنّي أُفْتَن بلغزٍ يُرعبني.

وبلا وعيي قد أتوّسل أن يبتلعني هَوْلُه كي أنجو من غُول ما بعد الانخطاف.

خداعٌ ذاتيٌ ينتهي كلّ مرة بيقظة الولهان جريحاً حتى الموت، في انتظارِ سحرٍ آخر يناديه من البحر، من أيّ بحر، على أمل غَرَقٍ يدوم...

❋

قال لي الشرّ: تَسَلَّحْ بي يُؤذن لكَ بالخير.

❋

ـ الفرق بيني وبين مَن عايشت، أنظُر إليه الآن من وراء برود المسافات، فأَراه كأنه قَدَر.

ـ عمّن تتحدّث؟

ـ عن رفاق الحياة «العامّة». في الأدب، الفن... دائماً هناك اختلاف، وأحياناً غربة، ومرّات تَناقُض. ومع هذا لا تجدني إلّا في قلب الاختلاف والغربة والتناقض.

ـ لماذا؟

ـ لا أعرف. أحياناً يكون رفاق الدرب أفضل منّي. لا أقصد المفاضلة، أقصد فقدان الشَبَه. كأنّ الفرق هو الذي يجذبني، هو الذي يتحدّاني، ربما حتّى لا أُضيّع نصيبي من الألم.

ـ أي ألم؟

ـ أَلمُ التكيّف وقمع الذات، أَلمُ الشعور أنَّ أكثر رفاق الدرب قرباً إليك هم أبعد الناس عنك.

ـ وعلى مَن تضع اللوم؟

ـ لا لوم على أحد. لعلّه خطأ التصويب.

ـ وماذا تقترح؟

ـ ربما تكمن السعادة في البقاء عند الشبيه، بل التوأم. وإلّا فعلى «المغترب» أن يدفع ضريبة الاغتراب.

ـ وهل أنتَ من دُعاة البقاء عند الشبيه؟

ـ إذا وَجَدْتَهُ. حين تجد شبيهك تَمسّكْ به... ولكنَّ الخوف هو أن تملَّهُ. فمهما عشقتَ نفسك من خلاله فسوف تتعب من التحديق إلى نفسك وتشتهي رؤية أحد آخر، مشهد مجهول. عندئذٍ يبدأ الاغتراب. وقد يكون، مع هذا، أكثر متعة من البقاء عند الشبيه، لكنَّ الألم ينتظركَ عند مفترق الطريق.

ـ و«الفَرْق»، كما تقول، ألا يؤلم «الطرف الآخر» كذلك كما يؤلمك أنت؟ لماذا تنسى هذه الناحية؟

ـ تعتقد أني أبالغ في تقدير خيبة أملي؟

ـ أعتقد أن فشلك في التقاء الشبيه في المختلف هو المشكلة. إلتقاء الشبيه في الشبيه ليس شيئاً. إنه الأمر العادي. إنه نَمَط المدمن الذي لا يحيد عن الاجترار.

ـ هكذا؟

ـ وأعتقد أكثر، أعتقد أنك حتّى في الشبيه لم تجد حليفك.

ـ ألا تقسو عليَّ؟

ـ لا، أراك في وضوح. في الشبيه لا تجد حليفك لأنّك تملّه ـ وأنتَ اعترفت ـ وفي المختلف لا تجد شريكك لأنّه لا يذوب فيك.

ـ ولو افترضتُ معك حقّ، ما الحلّ؟

ـ إنسَ ذاتك، قد يتذكّرك الحظّ.

*

حين ودّعتُ أبي اقترفتُ خطيئة التكبّر: رفضتُ إظهار أَلَمي كي لا أُثير الشفقة.

واكتشفتُ في نفسي خطيئة غيرها: الحَذَر من أن يؤدّي

تعاطف الآخرين معي إلى اختلاط عواطفنا حيث يضمحلّ ذاك الجدار الحامي ونجري معاً في جدول التحنان إلى بحر القطعان المتساوية.

خطيئتان؟

لماذا أقول خطيئتين؟

لم أشأ إظهار الألم حتى لا أبدو كمن يُمثّل الألم. وحاذرتُ تعاطف الآخرين خوفاً من تمثيلهم.

هي ذاتها نَعْرة الصدق لا تدع يدك تُمسك زهرةً إلّا تُيبّسها.

ألا يكون الاستسلام لبعض الأقنعة أرحم للجميع؟

كان أبي نهاراً وكنتُ ليلاً. كان يحبّني من دون أن أعرف. وكنت أحبّه من دون أن يعرف. وكان ذلك حَسَناً.

وأنا صغير كنت أطمح إلى الجلوس مثله إلى طاولة لأكتب كما يكتب، غير مهمّ ماذا، والسيجارة تشعلها السيجارة، والجوّ حروف تنهمر بعطف، وعبارات تنعقد مبتسمة، وسط الفقر المبارك.

كنتُ أعبد شكله كاتباً. رجل نحيف قلم نحيف دخان أزرق نحيف وكثير من الزهد والإمحاء وراء سلاسة واستشفاف زاداني تعلّقاً به.

وما إن بدأت بدوري أحمل القلم حتى وجدتُني غيره تماماً. كان هو نهاراً وكنتُ ليلاً. وكان وكان وكنتُ وكنت.

إلى أن مات. فنظرتُ إليه في هدوئه السحيق واكتشفت، لا أعرف لماذا، أن النهار ذاك لم يكن محض نهار وأن ليلي ليس كما ظننت.

ولعلّي، من يدري، لم أكن إلّا ما تركه لي كي أكونه.

وبعد غيابه، وهو أول غياب أواجهه بصفاء، أرفع رأسي متفقّداً ذلك السقف الذي ما اعتقدتُهُ يوماً سيختفي، فإذا بي ولا سقف لي بعد اليوم غير السماء.

*

أكثر ما برهنتُ، حين لم أعد أريد أن أُبَرْهن.

*

لعبة، سيظهر كلُّ شيء لعبة، والباقي رؤى مرعبة. وسيَغْرق

المَشْهد، وأنا معه، في طفولة أخيرة استعادَتْها لحظةُ الانطفاء.

*

«نِقابي لم يرفعه ولا إنسان».

ليس أنْ لا تدرك ولا سرّاً من أسرارها.

ليس عدم المحاولة.

ليس خَبَل الإنسان أمام لغز النقاب وما تَحْتَه.

ليس هذا الجبن أو تلك المحاباة.

بل أنْ يبقى اللغز، مهما فككتَ، صامداً متوالداً بلا نهاية.

ذلك هو النقاب العاصي على التمزيق. لا على التمزيق: على الإلغاء.

من أنتِ التي غَنّيتُ؟

إيزيس تلك، في لحظة.

من أنتِ التي ما زلتُ أَعشق؟

كلّ لحظة جديدة يتراءى فيها نقابٌ على وجهٍ يقول لي: «إرفعني، لم يرفعني ولا إنسان».

وأرفعُهُ ...

ثم يسقط الوجه ...

ويعود فيتراءى نقابٌ آخر.

... ولا تنتهي إيزيس

لأن سماءً في قلبي لا توصِد أبوابها.